أمين الزاوي

وحشة اليمامة

رواية

سلسلة عتبات
Collection Seuils



أميـــن الـــزاوي

وحشـــة اليمـــــامـــة

روايـــــــة

وحشـــة اليمـــامـــة

وحشـة اليمامـــة - روايـــة

أميـن الـزاوي

الناشـر: دار الغـــرب

للدراسات والنشر والتوزيع

الهاتف : 041.41.94.31/041.41.65.31

الطبعــة : 2002

التنفيـذ : دار الغـــرب

باب السماء

يهجم عليّ وجه أمي!! فأمتلئ بهذا الفيض المورّد. وسيل حكاية تندلق من فمٍ ذي شفتين بارزتين بسحر عجيب.

يهجم عليّ هذا الوجه، فلا أرى سوى تلك الأصابع وهي تفتّت رمان فبراير في طبق من حَلفاء.. ونحن قبالتها نخطف عقيق الرمان حفنةً حفنة، ويخطفنا هول الحكاية بعيداً بعيداً..

ماتت أمي وهي تحكي.. ماتت دون أن تنهي حكايتها.

الآن أشعر بشوق إلى حكاية، وأشتهي رمانة، وأعرف أنني لست حبيسة وحم.

مثل أمي سأفتح رمانتي.. قبل أن ينتهي العمر في هذا المكان أو في ذاك المكان أو في أي مكان يكون فيه الموت ممكناً.

أنظر من خلال الزجاج الذي يحيط القاعة الكبرى. فأشعر بأن للحزن لون المطر، كنت دائماً أعتقد أن للحزن اللون الأسود أو الرمادي.

الآن قبل أن تحط الطائرة التي ينتظرها خلق كثير.. أحسُّ بأن السماء هي مصدر الأحزان ومصدر الأمطار أيضاً.

رفعت عيني أبحث عن السماء، فلم أجد فوقي سوى سقف قاعة الانتظار الكبرى، سقف مصنوع من مادة صفيحية تشبه في شكلها الخلايا أو شهد عسل النحل.. تلك تقنية للحفاظ على جودة الأصوات في القاعات الكبرى.. أصوات الموسيقى، وصوت موظفة الاستعلامات.

القاعة ميتة، لا موسيقى، جهاز التهوية معطل، أمعائي تكاد أن تقفز من بطني، أعرف أنني لست حبيسة أتعاب الوحم.

محل بيع النبيذ والتمر مغلق. متأكدة أنه مغلق، حتى دون أن أجهد نفسي للتأكد من ذلك، هو هناك مغلق في أقصى الزاوية اليسرى من الطابق الأول، بجانبه محل بيع التحف التافهة والإطارات النافرة التزاويق المحشوة بالغبيبات، الواجهة مضاءة والباب مردود، إلى جانبه مكتب الديوان الوطني للسياحة، نعم الديوان الوطني للسياحة!! بعض حروف آرمته متلفة، تطل منه فتاة، أو امرأة مبالغة في ألوان زينتها، حتى قُبِّح وجهها، في الجهة المقابلة، كشك لبيع الجرائد والحلوى والسجائر والشوكولا والتمر أيضاً، ومحل لبيع الألبسة الجاهزة الرجالية، هناك في الركن الأيمن مكاتب الخطوط الجوية، ومكاتب الشرطة والجمارك ومكتب البريد والاستعلامات.

مكتب الاستعلامات فارغ، لا سائل ولا موظفة ولا مكروفون، ربما لم يعد لمثل هذه الخدمة ضرورة، فلا أحد يسأل عن أحد. كم سيخفُّ هذا الوزن الرصاصي بداخلي لو أن أحداً طلبني في الميكروفون، لو أن إسمي دوّى في هذه القاعة، حتى ولو كان الأمر

خطأ، إذ أن الذي يطلب هذا الإسم، يبحث عن امرأة أخرى لها نفس الإسم. لعبة جميلة لو أن أحداً في القاعة يراهن آخر على اسم امرأة في القاعة، فيختار كل منهما إسماً، فيكون إسمي، وأن كليهما مصمم على إنْ وجدت امرأة بهذا الاسم، فسيهرب بصحبتها إلى سنغفورة أو اي بلد آخر قسّمه ستالين بين ثلاث قوميات في أقصى آسيا.

انتبه.. القاعة تمتلئ. الجميع، مثلي ينتظرون الطائرة التي تأخرت أكثر من أربعين دقيقة. لم يعد تأخر الطائرات يزعج، الناس تقول: المهم أن تحط ولو متأخرة بيوم أو أسبوع!!

أتأكد أكثر كلما نظرت إلى وجوههم من أن للحزن لون المطر، أنا لا أعرف بالضبط تحديد لون المطر، مع العلم، وعلى وصيّة أمي التي كانت تجد شهوة ما في تفتيت حَبٌ الرمان بأناملها، كنت أضع سطلاً فارغاً في الحديقة لتجميع ماء المطر كلما هطل غزيراً، لأغسل به سالفي كي يطول أكثر، لم أفكر يوماً ما في الوقوف على معرفة لون ذلك الماء.

من كل فجّ جاؤوا! أصدقاؤه، أهله، صحفيون، الذين أحبوا مسرحياته، وبعض رجال السلطة جاؤوا، ورجال البوليس في ألبسة مختلفة انتشروا في القاعة وعلى السطح وفي موقف السيارات وفي..

النساء كن يحملن وروداً، وكن كثيرات، ربما أكثر من الرجال!

أنا هنا في هذا الركن، أحاول أن أهرب من عيون أصدقائه وزملائه في المسرح.. عيون مقروحة.

توزّع «فاطمة» منشوراً، فتاة متماسكة وصلبة على الرغم من جسدها الصغير بقامتها المبالغة في القصر.

الشيخ «نونة» يقرأ شعراً بالعاميّة، ويبكي، يقرأ قصيدة سقطت من «بستان ابن مريم».. قصيدة عن سباع وهران وأحيائها ونسائها وعطورها وخيلها وزهوها وانكساراتها. الذين واللواتي جاؤوا بحبات الورد وببعض الباقات أيضاً، والذين ما جاؤوا بشيء، سوى بقلوبهم ينصتون بصمت. وإذ ينصتون بصمت تتكلم السماء، فيُسمع نفير الطائرة أو أزيزها فوق مدرج المطار.

سكت الشاعر، ليترك للحاضرين لحظة التطلع إلى السماء. الطائرة موجودة هناك في العلو.

تعلقت العيون بالسماء الدكناء. أن يهطل مطر في وهران في مثل هذا الشهر فأمر واردٌ. علّقت أنا أيضاً بحركة آلية نظري في السماء الغائبة، في الفراغ، فكرت في السطل الفارغ الذي أضعه للامتلاء بمثل هذا الماء.. مطر حامض، مطر من خلّ، ماءٌ مخلوط بالكبريت.

امرأة تمرّ إلى جواري، تقول لأخرى بدا وجهها أصفر على الرغم من ملامح المقاومة فيه:

- لم نصنع حلوى العيد هذا العيد.. نسينا حتى أن نشتري ألبسة جديدة للأطفال.

لم تجد الثانية كلمات للردّ، فعالجت دمعها، وهي التي اعتقدت أنها مقاومة وقوية الداخل.

هبطت الطائرة على مدرج المطار.

يرتفع صوت امرأة محترقة الأحشاء، شجاعة، دون أن أميزها وسط الخلق المتجمع، أدركت أنها زبيدة. كانت تتكلم، تمدح العائد وتبكي من بقي من النساء والرجال.

كيف يمكن أن يكون البكاء قصيدة؟! إنها زبيدة، امرأة بقرحة كبيرة وعفوية كالهاوية السحيقة.

هجم عليّ الدمع، والحشد بدا أكبر. فرهنت نفسي لركن آخر كي ألمس أعماق البكاء. بكيت حتى شعرت بدوخة، بارتخاء، الصالة امتلأت أكثر ولا يزال الناس يفدون بالورد ومن دون ورد.

أُغلقت المحلات.

مكتب البريد هو الآخر أُغلق

يتحدث شرطي إلى «فاطمة».. يطلب بعض المعلومات.

يسرع الشرطي -أدرك الآن أنه ضابط شرطة المطار- إلى الداخل، ليعود بعد دقيقة أو أقل، كان في عينيه الدمع هو الآخر. شعرت بشيء غريب تجاهه وأنا التي أكره حتى رائحة البوليس.. للبوليس رائحة تشبه رائحة الخنازير. قال للجمع دون أن يرفع صوته:

- سيخرج الجثمان من باب الصالون الشَرَفي.

سال موج البشر إلى الخارج

فرغت صالة الانتظار

عادت زبيدة لصوتها، فرفعته إلى أقاصي العرش في السماء:

- «سبع وهران سقط..

حائط وهران سقط»

فاطمة.. ليست فاطمة التي كانت توزع المنشور، فاطمة أخرى، بملامح صحراوية ولون أسمر، تبكي بحرقة وتتحدث بعنف إلى كاميرا التلفزة، تُفرغ ما في قلبها من حبّ ورعب وشجاعة.

جرجرت جثتي خلف الجثث التي تمشي أو تسيل نحو الخارج.

المطر لا يزال يهطل حامضاً.

بحثت عن السماء التي يهطل منها هذا الماء فلم أجدها، لقد هربت من مكانها. تنزل الدوخة من الرأس إلى البصلة السيسائية. بقع الزيت والدهنيات مع ماء المطر الكبريتي تشكل دوائر ملونة، أفكر الآن في تدخين سيجارة، أية سيجارة، من أي تبغ، الواقع أنني لم أدخن طوال أربعين سنة من عمري الذي وزعته بين ثنايا جغرافية مختلفة، باستثناء تلك الليلة التي أعطَيت فيها عذريتي، دون ندم أو تردد، لشاب وسيم عشنا معاً خمس سنوات بدمشق في شقة على سطح عمارة في حيّ شعبي، رائحة قرنفلة لا تزال في أنفي.

تخرج سيارة الإسعاف، من باب ثالث غير باب الصالون الشرفي، يسيل الموج لاستقبالها.

الأصدقاء من الممثلين والشعراء والكتاب والبسطاء والنقابيين والصحفيين يسحبون بعناء ثقل جثثهم لما عليها وما فيها من رماد الاحتراق الرهيب.

المرأة التي كانت تطل من مكتب الديوان الوطني للسياحة، أجدها واقفة، مصلوبة القد إلى جواري، باكية ضائعة، ظهرت لي اللحظة جميلة، إن زينتها ليست زائدة.

تقترب سيارة الإسعاف بهدوء جنائزي من حشد الخلق الذي فاض على المطار. وإذ اقتربت سيارة الإسعاف بتابوتها، فقدتُ نفسي داخل لحظة حيرة، فضاع مني الخيط، وضاع مني الموقف، فصفّقت للرجل، الممثل النائم في التابوت، وقد نسيت التابوت، صفّقت بحرارة،

كنت أعرف أنه يتحرك في تابوته، خجولاً من التصفيق كما على الخشبة. ثم صفّق الجميع، لم أكن وحدي في حيرة منّي، كان الجميع في حيرة من أنفسهم. أدركُ جيداً أن مَنْ في التابوت في حيرة. كيف يردّ؟!

الليل بدأ يهبط.

المطر هو الآخر لا يزال يهطل، أو لربما توقف!!

حدّقتُ جيداً في التابوت وقد حُفّ بالورود. وإذ ابتعدت سيارة الإسعاف، وانطلق خلفها قطارُ السيارات الأخرى، كنت أراه يرفع غطاء التابوت ويضحك ضحكة خاصة كما يفعل عادة مع الممثل «بلاحة» ثم قال:

- لم ننه بعد «منامات الوهراني».. بقي منام واحدٌ يا «حمامة».

«فضيلة» التي كانت عيونها كعيون فهدة شرسة، هاهي مُنكسرة وقد فقدت عقلها فاستسلمت لهذيان عميق:

«المنامات.. ابن محرز الوهراني.. الكسكسي.. عبد القادر.. لماذا لماذا.. هذا عرسك يا سيد الرجال..»

تعانقها زبيدة التي فقدت حبال صوتها.

غاب التابوت، عنيدة سيارة الإسعاف.

خلا المطار إلا من قلة، غير بعيد ثمة موظفة الديوان الوطني للسياحة لا تزال مصلوبة تحت المطر، قامة من كلس أو ضباب.

الآن تختفي آخر سيارة في قطار السيارات التي تبعت التابوت، مثل موظفة الديوان السياحي أنتبه إلى صلباني.

عدت إلى الصالون.

المضيفة تعلن عن اقتراب موعد إقلاع الطائرة، صوت المضيفة هو الآخر مليء بالحسرة والحيرة.

انزلقتُ إلى الداخل، وقد لمستُ الآن فداحة الفراغ حولي إذ فقدتُ عبد القادر وفقدتُ ابن بطوطة الذي خيّب ظني إذ لم أجده. كما كنت أتوقع يحتل كرسياً بجواري في هذه الطائرة.

أيكون هو الآخر قد أخذ مكاناً له في تابوت بفاس، بعد أن سئم البحث عن «سارية» التي جاءت وأهلها من قرطبة هروباً من محاكم التفتيش.

أشعر ببرد يستقر في العظام، تسعفني المضيفة بقرص أسبرين ثم تدفّئني بغطاء، تضع يدها الناعمة فوق جبهتي فأشعر بحاجة إلى ابن بطوطة الذي فضل سارية عليّ.

من تحتي وأنا أتجه شمالاً أو جنوباً بدت المدينة منكمشة مهزومة أو مفجوعة.

ها أنذا أرحلُ حاملة معي إرث ابن بطوطة الذي اختفى أو رحل في اتجاه آخر، إرثاً من مخطوطة ظل يخفيها عن الجميع: «حكايات الهدهد عن غرائب الأمصار وعجائب الأقدار».. ولها عنوان آخر، كانت ملفوفة في أفيش مسرحية «أرلوكان خادم السيدين»..

قلت: - هذه المخطوطة ستنسيني «طوق الحمامة»!؟

فتحتها إذ شعرت بزوال البرد الذي سكن جسدي، كانت بخط مغربي مزوق رائع وغريب، مسبوقة بإهداء لابن مقلة: الخطّاط الذي بُترت يداه فظل يكتب بقدمه!!

وبعد الإهداء يبدأ سَرْدَ هَوْل ما راى وما سمع مني ومن زهار ومن أمي ومن يمامة ويامنة ومن الطشقندي..

أُقرأ وأحنّ إلى زهار وإلى تمثال الشاعر والفارس الذي سقط من رخامه و سقطت صورته من الأوراق النقدية، وأحنُّ إلى المسرحي.. وأقول:

- الرحيل قطعة من عذاب.

تختفي المدينة لتخرج مدن أخرى من غابة المخطوطة.

باب الهدهد

أرسل عينيّ من نافذة هذه الطائرة، فلا أرى سوى الفراغ، الحمّى تلتهم عظامي. المضيفة لا تزال تجلس إلى جواري، أحاول أن ألمس عينيّ فلا أجد اليد التي تسعفني، ضاعت اليد مني، إن صفاراً زعفرانياً يأكل عينيّ كما فعل ذلك بعينيْ أختي يَمَامة حتى أخذها إلى قبرها.

لم أكن أعرف أن يمامة ليست أختاً ليامنة.

أما أنا حمامة فكنت أناديهما «أختاي»، لأنني حينما جئت الدار تلك الظهيرة صحبة ابن بطوطة وزُهار كان عليّ أن أنقذ نفسي من شراسة نظراتهما وأن أُبرم معهما عقداً سرياً بموجبه أُسلّم لهما الرجلين دون تعليق.

كل شيء محفوظ في رأس ابن بطوطة، لو أنه سكت لحظةً عن حكاية غريبة لمات من ضيق التنفس، كان يقول لي أنا أحكي حياة الرجال والنساء والبلدان كي أعيش مرات في الآن. كنت أضحك. الآن أجد أن هذا من الحكمة.

في الطريق إلى وهران، قال لي سأدرّبك على أقوى سلاح ضدّ شراسة الموت وحدّ الوقت، إنه الحكاية يا حمامة.

ودخلنا المدينة على جناح حكاية، كنت أعيشها ولا أعرفها.

قال ابن بطوطة:

- أختك يمامة.. أعرف أنك تدركين أنها ليست أختك من الأب ولا من الأم..

يمامة حكاية، يمامة طائر، حمامة برية، جيء بها من سطيف، من ساحة الفوارة، هي تقول هذا، أعني أمها، لكن رجلاً مثلي يعرف رائحة المكان من ملامح العباد، يدرك جيداً ودون شك أنها من سلالة وصلب بحّارة المرسى الكبير، حيث جلدها يفرز ملحاً أبيضَ، وأن شخيرها يشبه موسيقى الموج، وأن حركات يديها تدل على أنها تجذّف أو ترمي بالشباك أو تسحبه أو تخيطه أو ترقع رتقه.. حبها لسمك السردين والجمبري ليس رغبة جائعة، إنما رغبة سرية.

أختي يمامة.. هل إن اسمها يمامة؟ لا أعتقد، هو اسم أطلقه عليها ابن بطوطة كما أن زُهَارَ أطلق عليّ اسم «حمامة».

«يامنة» لا تحمل اسم طير لكنها أكثرنا شبهاً بالهدهد أو النّسر، مرات أجد أن اسم «حمامة» أليق بها مني، فأخاف أن أصارحها بذلك، لأنها تعتقد أن اسمها يعود إلى أميرة وهي وحدها تعرف مملكتها وتفاصيل قصورها. كل ما في رأسها عن تلك الأميرة هو من صنع ابن بطوطة، سامحه الله فقد طيّر عقل الفتاة وهي صغيرة.

«يمامة» كانت تحب الفنجان أكثر مما تحب القهوة فيه .. كانت تقول كلما جلسنا لشرب قهوة العصر:

- للعين شهوة وشهية أكبر من جوع البطن.

كانت أمي تضحك. تعجبني أمي حين تضحك فتلمع ضرسها الذهبية، في البداية كانت تضحك بملء فمها حتى يبرز ذهب ضرسها، لكنها مع مرور الزمن نسيت ضرسها وذهب فمها فاحتفظت بعادة اعوجاج جميل أنثوي لفم يضحك.

ذات عصر، كسرت أختي فنجانها.

عجبا!

أنا لم أشاهدها تقوم بمثل هذا الفعل الشنيع وهي التي تقضي نصف نهارها تحدّق في رسومات هذا الفنجان المصنوع من البرسلين الصيني الأصلي، حيث آلاف الحيوانات الخرافية التي لا يعرفها سوى ابن بطوطة، تفرُّ لتوها فزعة من متن حكاية صينية أو هندية أو فارسية، حيوانات تشبه /تارة/ النساء الجميلات الفاتنات الغاويات، وطوراً تشبه الغزلان والأيائل والعنز البري والبقر الوحشي وأحمرة مخططة، وأحياناً أخرى طواويس وهداهد وعصافير كالهزارات أو البلابل بثلاثة أجنحة أو أكثر.. كل ذلك حسب أشعة الشمس وزاوية الرؤية.

تحتضن «يمامة» فنجانها نهاراً، وليلاً تسرقه «يامنة» باحثة عن صورة لملكتها.

شهوة الليل والنهار.

الفنجان.. لماذا كسرتْ «يمامة» فنجانها؟

الفنجان.. شهوة الليل والنهار، أهداه لها، تاجر متجول، كان يجيء قريتنا يسوق بغلة شهباء. البغلة ملك لتاجر كبير، يقال إنه

يجلب بضاعاته من الصين وسمرقند والدومان وبلاد أخرى لا يذوبُ عنها الثلج.

سحب الشاب الذي لا شكل له، والذي لا يشبه أحداً، ولا يتكلم العربية ولا البربرية إلاّ قليلاً قليلا. سحب فنجاناً عجيباً من عمق دفة الخُرج من فوق البغلة، دون أن يسحب لسانه من فمه، مَنَحَني إياه ثم مضى في غبار الطريق. وتركني من ساعتها معلقة نهاراً في بهاء حيواناته، ولتتعلق أختي في مملكتها المرسومة عليه ليلاً. لم تكتشف «يامنة» مملكتها إلاّ بعد أسبوع من حصول «يمامة» على الفنجان، لذلك فهي تقول دائماً إن «يمامة» تكبرني بأسبوع فقط، وإنني مثل «الأميرة يامنة» لم أمكث سوى سبعة أيام في رحم أمي.

عرفنا فيما بعد نحن الثلاثة وأمي رابعتنا، أن هذا الشاب التاجر المتجول، جاء به التاجر الأكبر من طشقند وهو في طريق عودته من الصين، فأوكل أمانة بيع بضاعاته منذ أزيَد من ثماني سنوات، يسجل قائمة زبائنه وقائمة مبيعاته وديونه على أوراق سجل كبير مغلّف بجلد خنزير، إنه لا يغيّر الدفتر إلاّ مرة واحدة في السنة، يكون ذلك عادة أسبوعاً بعد عيد الأضحى، بعد أن ينقل إلى السجل الجديد ما تخلّف من الديون التي لا تزال معلقة في أعناق أهالي القرى والمداشر، من الأحياء والأموات. إنه لا يتردد في مطالبة الأحياء بدفع ديون الأموات كاملة أو نسبة منها حسب قانون حمورابي، في المقابل لم يكن الأهالي يتحفظون على هذا القانون، الذي يختلف وقوانين أخرى، لكنها قوانين قَبِل بها الجميع مسلمون ويهود ومسيحيون ووثنيون وعبدة الشيطان، يقالُ إن التاجر الكبير الذي سمعنا عنه الكثير ولم نره ولا مرة واحدة، قد اشترى هذا الشاب من مزرعة تبيع الخنازير والعنز البرّي لغير ذوي الملة

الإسلامية، اشتراه ذات سنة هجم الجفاف والجراد فيها على المنطقة، وسـرق مـا تبقـى مـن محصولـها الشـحيح الجماعـات المحترفـة مـن لصوص القوقـاز. دفـع مقابله خمسـة أرطـال غـير وافيـة مـن القمـح التركي الرديء وأوقية شـاي هنـدي يُستعمل دواءً لآلام البطـن وحبس جريان الأمعاء والقرحة المعدية، أكثر مما يُستعمل للشراب العادي.

كان الطشقندي يجيء قريتنا، يركب بغلته، يحـدث ذلـك نـادراً، إذ أن أغلب المرات كان يسحبها من حزام رسنها. كـان يحـبّ الشـمس، خاصـة تلـك الشـمس التـي تنـوّر فيـها شـجرات اللـوز والخـوخ.. شـمس نهاية الربيع وبداية الصيـف.. وكـان يحـب أكل البيض المسلوق بـالملح والكمّون، خاصة بيض الحجل البرّي، الذي كان يسـميه بيـض الديكـة، وكنـت أرسـل الأطفـال، بعـد أن أمـلأ جيوبـهم بـالحلوى، بحثـاً فـي الأحراش عن البيض حيث يعشش الحجل.

أكثر الأيام التصاقاً بذهني، ذلك اليوم، الطشقندي تحت شجرة التين «الذكّار» التي يملأ جذعها النمل كل صيف، وتعلّق فيها النسـاء قطعـاً مـن أثوابهن ذات اللـون الأخضـر، وبعضـهن، كـن يجففـن حليـب أثدائهن ثم يضفن إليها دقيق الحُلْبة والعسـجد والثوم والأوسـاخ التـي تتجمع تحت الأظافر في الرِجْل اليسـرى ثـم يعلقـن هـذا المخلوط في رأس برعم انبثق جديداً هذا الفصل، كان الشاب ينظر إلى فروع هـذه الشـجرة العجيبـة التـي عُلّقـت فيـها عراجـين التمـر والتـين المجفـف ومصّاصات الرضاعة للأطفال، إلـى جانبـه يقـف إمـام القريـة، سـاكتاً يقرأ القرآن أو يتلو دعوات جهراً تارة وسراً تارة أخرى.

الطشقندي سـاكتاً كان، حائراً عيناه تقولان ما عجز عنه لسانه الذي تركه هناك في بلده البعيد.

إلى جانب الألم، يقف رجلان، أحدهما حدّاد، وأما الثاني فهو سكيرٌ، طيبٌ يحبُ أغاني فهد بلان، يعمل في قصّ حوافر الخيل والبغال وتركيب الحذوات قبل موسمي الحرث والدرس.

الحداد ساكت، صمته مخيف، كأنما يبيّت لخديعة أو مؤامرة قتلٍ احترافية.

ما نظرت من هذا العلو، من فوق هذا السطح، إلى الإمام، على الرغم من سماحة وجهه، إلاّ وشعرت بنوع من الخوف، انقباض في بطني ورغبة في القيء وشهية لبكاء عميق عميق.

أكتشف الآن غرابة شجرة التين، وكأنها لم تكن هنا، وما وُجدتْ أصلاً، وأن الذي يهيّء الآن، ما كان له أن يكون لولا هذه الشجرة، ولولا هذه التمائم الكثيرة المعلقة في فروعها حيث طغيان اللون الأخضر، وحيث حركة جيوش النمل الأحمر الفرنسي - الرومي والأسود العربي لا تكاد تهدأ، بدا الجذع فارغاً يابس القلب على الرغم من هذه الخضرة في الأغصان والأوراق.

من هذا العلو، كان الطشقندي يبدو لي أقصر من طوله القصير المتناسب مع أنفه الأفطس، وقد ضاع بين شفاه إمام يرتل القرآن، وعيون اثنين ينظر الواحد إلى الثاني بريبة، همّ الإمام فسحب من على كتفيه برنوسه الأبيض ذا الجناحين الواسعين، طلب من الحدّاد أن يربط طرف البرنوس إلى فرع شجرة التين، فعل ذلك بسهولة إذ وجد كثيراً من الخرق المعلقة، سحب الإمام الطرف الثاني، فاختفى الطشقندي خلف البرنوس المشرع الجناح. عليّ أن أغيّر موقعي في هذا السطح كي أرى المشهد حتى نهايته.

من هذه الزاوية يبدو المنظر كاملاً. لم أكن أتوقع أن مثل هذا

يحدث أمامي، لرجل أحببته ولم أشعر بشبقيتي إلا بين يديه، وأحبته أيضاً «يامنة».. وربما «حمامة» أيضاً.

الخوف واضح في عيني الطشقندي.

يفتح الحداد حقيبته وكذا فعل مسمّر حذوات الدواب، الطشقندي لم يتكلم حتى الآن، وهو الذي يفتخر كثيراً بمعرفته لجمل عربية وبربرية كاملة. ربط الرجلان بإحكام يدي الطشقندي إلى الخلف حول جذع شجرة التين، بعد أن ألبساه عباءة عريضة بيضاء، بياضها من هذا البعد يبدو غير ناصع، بياض مليء بالإصفرار، رفعا العباءة إلى الحزام، ثم سحبا السروال من على إِلْيتيْه، والطشقندي صابر. لفعلهما وللنمل الذي سرح فوق يديه وعلى وجهه الذي عرق عرقاً أشد بياضاً من الكلس أو الجير.

نسي الإمام تلاوة آياته.

ربطا رجليه بإحكام أيضاً إلى جذع الشجرة كما فعلا باليدين. بدا مصلوباً، كتلك المنحوتات والتماثيل التي شاهدتها على قبور الفرنسيين وأمريكيي الحرب العالمية الثانية في مقبرة النصارى خارج القرية.

قبورٌ رخامية مغرية للنوم.. نومٌ بأحلام ملونة.

رفع الحدّاد العباءة عن فخذي الطشقندي.. فبدا ذلك العضو الذي كنت أعتقد انني وحدي الذي أعرف مكانه وسرّ بهائه.

حزنت.

عاد الإمام لقراءة آياته الكريمة، وقد بدا عليه التأثر وشيء من الرهبة والغموض أو الندم الداكن.

أخرج مسمّر الدواب سكيناً ومقصاً وبعض قنينات صغيرة من الزجاج والبلاستيك وقطعة قطن وخرقة من الكتّان الأبيض، ودون أن ينتظر.. على كل ليس هناك شيء ينتظره، هجم على العضو الجنسي للطشقندي هجوماً فيه كثير من الحقد أو الحسد، فقطعه أو قلع منه شيئاً كثيراً. أنا أعرف سبب هذه الكراهية التي يحملها مسمّرّ الحذوات للطشقندي، إنني أنا السبب، لن أكون سوى أنا أو أختي، فلكم لهث خلفنا دون نتيجة.

يرتفع صوت الطشقندي حاداً ثم يسكت.

مسكت على بطني.. أسفل بطني.. ومثلي فعل الإمام أيضاً الذي نسي أو هجر قرآنه.

حاصرتني بولة ثقيلة. ارتجافة في الرحم.

نزلت البولة، تركتها تنزل، دون أن أتعب نفسي في البحث عن مكان لذلك.

من هذه اللحظة شعرت بثلجة سكنت داخلي، استقرت حجرة بين الرحم والحوض. وبدأ جسمي يفقد ناره وعزة جمره.

كانت «يامنة»، اسمها الحقيقي «ياسمينة»، تريد أن توقظ جسدي النائم في موته البارد، فتحدثني عن ابن بطوطة، عن مَزارع الحشيش فوق السطوح الترابية، عن الوشم الذي يحمل اسمي على عضده. لم يكن ليثيرني هذا الحديث. أعرف أنها كانت تتحدث لنفسها أكثر مما كانت تتحدث إليّ. هي الأخرى تحب الطشقندي وربما أكثر مني. إن مشهد الطشقندي مستسلماً مسلّماً عضوه للحدّاد قتل فيّ كل رغبة.

بعد أربعين يوماً، كنت أعدّ أيام غيابه عداً، لم أقرن ذلك بنفاد مخزون الزيت الذي يجدد مرة كل عشرة أيام، ولا باحتياط الصابون الذي ينفد كل شهر أو خمسة أسابيع.. بعد أربعين يوماً عاد الطشقندي، كعادته، يجر بغلته ببضاعتها، لا جديد فيه سوى البغلة التي غيّرها بعد أن جرفت فيضانات النهر الوحيد في القرية بغلته الشهباء وهي تهمّ بعبوره. عرفت أنه بالباب، وأُختاي حمامة ويامنة أو ياسمينة عرفتا أيضاً ما عرفته. لم يحرك فيّ وجوده أي شيء، سوى بعض القلق كذاك الذي يشبه قلق الدورة الدموية.

إنه في الخارج دون لسان كالأبكم، يبحث عني؟!

عمّن يبحث الطشقندي: يمامة أم يامنة أم حمامة؟!

لم تكن أية واحدة منا تعرف بالضبط من المقصودة، كل واحدة منا كانت تعتقد أنه يبحث عن الأخرى حين تكون تلك الأخرى غائبة، وحين نكون معاً نحن الثلاثة، كل واحدة تعتقد أنه يقصدها هي دون الأخريين.

أنا حمامة لست أدري لماذا كنت على يقين بأنني خاسرة مثل هذه المعركة. ربما لأن اسمي ارتبط أكثر بزهار، حتى قيل عني إنني تزوجته ثم اكتشفت شيئاً فيه ثم قضى الإمام بيننا بالخلع.. كل ذلك كلام فارغ.

قرأت في عينيّ أختي يمامة أنه يبحث عني، كما قرأتْ هي في عينيّ أنه يبحث عنها، طلعت معدتها إلى قلبها، تقيأتْ فاضت القهوة من فمها وأنفها، سوداء مغلفة، لحظتها انسحبتُ من قبالة باب الحوش، إلى فناء الغرفة التي كنا نبيت فيها نحن الثلاثة، نظرتُ إلى رسومات الحيوانات الغريبة الخرافية الصينية الموجودة على فنجان

القهوة الذي يشبه في استدارته وبريقه الغالب عليه لون الصفرة، عينا أختي بهذا الاصفرار الذي بدأ يلتهمهما وقد اكتشفَتْه فبدأتْ تخفيه عني وعن الجميع إذ تهرب من مواجهتنا، ولا تكلمنا إلا ونظرها في الأرض كالمذنبة، ولا ترغب سوى في الليل إذ تقضيه على السطح في أحواض الحشيش التي يقال إنها لابن بطوطة، لقد تعلم فن زراعتها من أهل كتامة في الريف المغربي حين رحلته إلى الشرق بعد مروره بفاس حيث تعرف على التي لم يتحقق حتى الآن هل كانت امرأة أم جنية.

كان ابن بطوطة يقول:

- من يمر بفاس أو تلمسان فسيترك قلبه هناك.

- بين يديّ هذا الفنجان. الطشقندي في الخارج، دون لسان، يخاف من الشجرة التي في ظلها حدث له ما حدث، كان يواسي نفسه إذ يسترجع كلام الإمام قائلاً:

- لا تخف.. لقد خُتِن من قبلك سيدنا إبراهيم وقد بلغ من العمر تسعاً وتسعين سنة.

أحدّق جيداً في هذه الرسمة، هناك امرأة، أو ما يشبه أنثى، تختفي خلف كل هذه الحيوانات المبالغ في ألوانها، امرأة أو ما يشبه ذلك تريد أن تأكل هذه الحيوانات من طيور وأسود بأربع قوائم، بعضها بستة، وأفيال وصغارها وثلاث أفاعٍ بخمسة رؤوس وبني آوى وغراب وقنفذ وحمار وحش مخطط بطريقة مثيرة وزوج حمام وزوج طاووس وزوج حجل وسنام جمل ونصف رأسه وقائمته الأولى وكأن الرسام كان على عجل إذ نسيْ القائمة الرابعة للحصان ذي اللجام

الملون الأطراف.. سلّة من قصب أو سليفان أو خيزران مملوءة بالفواكه المشهية ذات الفصول المتناقضة، أعناب حبها يُشبه عيون النساء أكثر ما يشبه فاكهة النبيذ، تفاح أحمر وأصفر وآخر رمادي وكمثرى حجمها أكبر من حجم البرتقال، وتوت مغربي وتمر ورمان وتين وخوخة واحدة، وثلاثة أنواع من الفواكه لم أعرف أسماءها.. لا أعتقد أن هناك في الدنيا فواكه بمثل هذا الشكل وتلك الألوان التي تشبه ذيل الطاووس، إنها من مغريات الجنة.. جنة قرأ عنها الرسام في الكتب اليهودية أو المسيحية، أو الإسلامية أو البوذية أو الكنفوشية. كلما حاولت أن أركز نظري بشهية في الفواكه، كانت المرأة تقابلني، وكلما حاولت تدوير الفنجان في يدي كي أتابع قسمات الديناصور أو هذا الذي يشبهه، أو حراشف جلد هذه الأفعى التي ينبت لها رأس بقرنين في البطن وثان دون قرون في الظهر، إلا والمرأة تنظر إلى بسخرية وعنف وتحرك حاجبيها دلالة على الغواية والنكاية التي تعامل بها الرسام معها.. رسام فقيه يعرف الفرع والأصل. أعتقد أن هذا الفقيه حوّل هذه المرأة من صورتها الحقيقية إلى خطوط ونقط ومساحات على الفنجان كي يسهل له شربها كل لحظة.. أو على الأقل ثلاث مرات في اليوم.

كان الفقيه يتلذذ بشرب المرأة، في نبيذ عريق يتستر في فنجان خزفي لا يُستعمل إلا لشرب القهوة.

هذه المرأة، الأفعى هي التي تقول ذلك، كانت تحب الفقيه، لكنها حين غرقت تمنّعت، وحين طلبها للفراش أو زواج المتعة على سُنّة الله والرسول رفض أخوها الأكبر إذ طلب مهرها سبعين شجرة برتقال ومائة وعشرين حماراً قبرصياً أبيض اللون وثمانية وتسعين مروحة يدوية من صنع صيني، كما اشترط على الفقيه حفر ثلاثة آبار

لسقي شجر البرتقال وإرواء الحمير، وألا يكون ماء الآبار مالحاً أو شلحاً على الرغم من أن القرية بُنيت على أرض سبخة مالحة.

سكنت النار قلب الفقيه، وذات عصر أخرج «قلمه» القصبي ودواة «السمق» الوبري، وقرر أن يكتب «كتاباً» على أثره تجيء المرأة ذليلة خانعة عارية مستسلمة، وكان قبل أن يكتب كتابه قضى ثلاثة شهور في قراءة القرآن وكتب الحكمة والطب والشعر والموسيقى.. ثلاثة شهور أوسطها شهر رمضان الذي كان عدد أيامه تلك السنة اثنين وثلاثين يوماً..

كان على المرأة إذ تخَطَّت «الحرز» الذي وُضع في طريقها إلى البئر، حتى انتقلتْ النار من قلب الفقيه لتأكل أحشاءها وقلبها.. فصرخت فلم تنتبه لها صويحباتها، ولا الطفل الذي كان يتبعها على بعد مترين أو أقل.. قاومت نارها، إذ سحبت دلوها مليئة من البئر ثم أفرغَتها على رأسها.. النار تشوي أحشاءها.. وإذا غادرت صويحباتها المكان، فخلا لها، عانقتْ الطفل فإذا هو الفقيه نفسه، استسلمتْ له ونامت في حجره فاتحة عينيها كما هي الآن على الفنجان مع هذه الحيوانات الخرافية. وفي الصباح وُجدت المرأة في قاع البئر. وظل الفقيه بعد اكتشاف جثتها يشرب النبيذ ويقرأ القرآن ثلاث سنوات على حافة البئر، ويرسم هذا المشهد على هذا الفنجان. مشهد أو قطعة من الجنة أو من بلاد بلقيس، كان يقول بصوت عالٍ، حتى اعتقد الناس أنه جُنّ:

- يجب أن تكون الآلهة إناثاً، لأن ترتيب الجنة بكل تلك الغواية والإغراء والفتنة لا تكون إلا من إبداع أنثى.. الأنثى الأصل. هي عمق الانهيار وأصل الطوفان والقيامة والإنشاد.

كان الفقيه الذي يدعى الواسطي أو ابن البواب الذي عشق النساء الموجودات في الجنة، فأخفى رغبته الجامحة تلك فأعاد كتابة القرآن أربعاً وستين مرة كي يستلذ بالحوريات وأنهار اللبن والعسل وسواقي الخمر والقطوف الدانيات.

أخاف من أختي، فأشعر برغبة لرؤية ابن البواب الذي كان يخلط شِعْر عمر بن أبي ربيعة بآيات القرآن الكريم. أنتبه وإذا أختي تنظر إليّ وكأنها تقرأ خواطري، كانت عيناها مليئتين بالفزع:

- لا تخافي يا أختي التي لم تلدها أمي، إن ما أراه هو ما لا يمكن لعينين أكلهما الصفار المخيف أن تراه.

حرّكتُ الفنجان، لم تتحرك أختي، تحركت المرأة التي في الصورة، فعدلت من جلستها، وزادت قليلاً من ضحكتها المليئة بالغواية. فرأيت البئر الذي سقطت فيه.

كانت أختي تحاول، عبثاً، أن تخفي صفار عينيها بالمبالغة في استعمال الكحل الإيراني الأصيل الذي اشترته من الطشقندي. كانت تخاف دائماً من أن ينزلق الوتد القصبي الذي تنظم به زينة كحلها، إلى البؤبؤ فيطفئ النور نهائياً فيهما. خاصة وأنها بدأت تشعر برجفة خفيفة تجتاح مفاصلها. كانت تريد أن تكثر من السواد ربما لإغراء صاحبها الليلة كي يحكي لها عن رحلته إلى مالطا، والتي تعرّف فيها على «لوفا» الأكرانية، امرأة باسقة تحب المتوسط وأشعار بول إلوار وناظم حكمت وقصص القرآن التي لا تميز بينها وبين حكايات ألف ليلة وليلة.

كان لقائي بها.. بـ «لوفا» قبل أن أتعرف على «زهار» و«حمامة» في ذلك الفندق الذي لا أنام في هذه الجزيرة إلا في غرفة

«410» من طابقه الرابع، من هذه الغرفة أشعر بأني أطل على البحر والميناء والفراغ، مع أنني لم أفكر ولو مرة واحدة في أن أقف في الشرفة لأكتشف ذلك.. ربما أنني أرى هذه الأشياء داخل ذاتي.. في أعماقي.

كنت أشتغل صرّاف عملة، أنطون اللبناني هو الذي علّمني حرفة الصرافة بعد أن مارسها ثم تركها مؤكداً لي أنها مهنة رائعة، ولكنها تحتاج إلى نفَس طويل وأعصاب باردة، وأنها مهنة تفتح على مهنة أخرى لا تنفصل عنها وهي «المخدرات» التي أكثر زبائنها من رجالات السياسة القادمين إلى الجزيرة من بيروت أو البحرين أو طهران.

أنطون علّقني في صنارة «حرفة صرّاف العملة»، ثم انتقل هو إلى حرفة أخرى، قال إنها أكثر ربحاً من الأولى، في البداية قال لي أنه أسّس حزباً قوياً سيدخل به الانتخابات في بلد عربي وسيربح، وأنه إذا ما خسر سيدخل به الانتخابات في بلد أمريكو - لاتيني وسيربح.

«لوفا» هي التي كشفت حرفة أنطون، كانت تحكي وهي تضحك، ربما ليلتها شربت أكثر بكثير من حصتها المعتادة، وربما أيضاً من فعل«الحشيش» الذي ناولته إياها مغربية لا تتكلم سوى البربرية، وتقول إن لغتها «كردستانية».. قالت «لوفا»: إن أنطون يشتغل «قواداً»، فهو يسافر إلى المغرب حيث له شركاء في «الدار البيضاء» و«طنجة»، يشتغلون تحت يافطة شركة «للتصدير والاستيراد»، مهمتها جمع الفتيات من الأوساط الريفية - الفلاحية وأوساط مهنة الحياكة وحتى من الأحياء الجامعية.. ثم يتم تدريبهن قليلاً على

الرقص والغواية ثم يتم تصديرهن إلى مالطا، حيث يتم توجيههن إلى دول عربية أو بلدان أخرى.. لقد توسعت شركة أنطون وفتحت فروعاً لها في«موسكو» وأيضاً في«بوخارست»..

قالت «لوفا» جئت إلى مالطا من موسكو في إطار عقد عمل في شركة طيران اسمها: (2 airs).. ثم وجدت نفسي بعد أسبوع أحمل اسم «فاطمة» بجواز سفر لبناني، سافرت به إلى «اليمامة» أو عفواً إلى «المنامة»، قضيت هناك عشرين يوماً، ثم من هناك سافرت بجواز سفر يمني إلى «طهران» ثم قضيت هناك أحد عشر يوماً، ومن ثم، وبجواز سفر جزائري باسم جديد هو «عائشة»، سافرت إلى الرياض، قيل لي.. يمكن لك أن تؤدي العمرة هناك.. في كل رحلاتي عرفت الرجال والعوالم الداكنة التحت - أرضية.. وكنت أينما نزلت يتم تزويجي برجل، أو أكثر، زواجاً يقرأ فيه القرآن، وبعد أن تقرأ الآيات الكريمة تفتح قناني «الشمبانيا».. زواج متعة.. وكنت كل زواج يدق الهاتف فأسمع صوت أنطون من «مالطا» أو «طنجة» أو «وهران» يبارك لي الزواج والليلة ويذكّرني أن رأس السنة القادم سأكون له، وسنقضيه في «حقول الإليزيه» بباريس. حلمت كثيراً بباريس فأخطأتها في كل مرة لأجدني في «أنقرة» أو في «الحمّامات» بتونس أو في فندق خليجي ببيروت.

أنطون رجل ذكي، موهبة خارقة. أنا أعرف الذي قتله، إن حادثة احتراق اليخت أمرٌ مدبّر. أعداؤه كثيرون. بعضهم كان يحسده حتى على اللغات التي يتكلمها: الفرنسية، الإنجليزية، الروسية، الإيطالية، الإسبانية والتركية والعربية.

لقد أحبتني من أول ليلة.. كنت قد دعوتها وفرقة موسيقية

تصاحبها إلى مائدة عشاء. شربوا كثيراً من الويسكي، ولكنهم أحبوا نوعاً من النبيذ المالطي الرديء، فاستهلكوا منه كميات كبيرة.. لست أدري لماذا غالبية السيّاح يحبون هذا النبيذ الرديء الذي نسيت حتى اسمه.. غنينا أغنيات تركية وشركسية وروسية عتيقة وعربية - أندلسية.. في تلك الليلة اكتشفتُ أن لي صوتاً يمكن أن يصلح للغناء.. لكن الأغاني هربت مني لتبقى أغنيتان لاصقتان في حبالي، واحدة أندلسية وأخرى بالكردية.. صوتي هو الذي كسر قلب «لوفا» الأكرانية التي تكره اللغة الروسية ولا تعرف غيرها. إضافة إلى صوتي فقد أعجبت أيضاً بالوشم الموجود على ظهري والذي وضعه لي صديق ترافقت معه في زنزانة بسجن سركاجي بالجزائر العاصمة مدة خمسة أشهر.

في غرفة الفندق كانت الأكرانية تتشممني، مأخوذة حد الغيبوبة برائحة جسدي التي فيها من العرق ورائحة النبيذ الذي ساح ليلتها على قميصي ورائحة سمك الجمبري بالثوم والقرفة والليمون. كانت تجردني من كل ثيابي ثم تلصق أنفها بظهري وفي حفرة السرة ببطني وتقول بالروسية مخلوطة بإنجليزية مكسورة: Parfumee is very good. كانت تبعد عن جسدي كل عطر تجاري كي يطلع منه عطره الأصلي المتوسطي. ربما هي رائحة اكتسبها جسدي من الرطوبة المالحة على سطوح أحواض زراعتي.

قضت «لوفا» الليلة كاملة تتشمم جسدي، دون أن نمارس الجنس. كنت أريدها أن تتزود ما أمكن برائحة جسدي، باحتياط كبير، لأنني أعرف أنها سترحل في الصباح في اتجاه لا يعرفه إلا وريث أنطون الذي يرفض المبيت في الفنادق، ويقول إن له زوجة وأربعة أطفال، وأنه يصلي الجُمعات ويصوم رمضان.

سافرت «لوفا».. طارت إلى بلاد لا أعرفها. وفي ذلك المساء عندما وجدت نفسي حزيناً في بهو الفندق دخل زهار ومعه «حمامة».

تذوب أختي في الحكاية. تنسى جسدها على السطح، كحوض من أحواض زراعة «ابن بطوطة». كلما زاد في حكاياته عن الدنيا والأهوال والغوايات. ازدادت عيناها صفاراً.. كان يعلّق عليها:

- كانت الأكرانية تحب رائحة جسدي، وأنت تحبين حكاياتي فمن يحبني أنا؟ أنا القادم من فارس!؟

أدرك جيداً أن ابن بطوطة يعطف على أختي أكثر مما يحبها، وكأن قلبه سقط منه في البحر فأكلته حوتة. وكانت أختي تشعر بذلك، لكنها لا تريد أن تقتنع بالموقف، فتكذب على نفسها فترتاح لهواجسها..

هذه الليلة قبل أن تنام حكت لي أنها سافرت شهراً كاملاً مع ابن بطوطة إلى جزيرة «السعد» الموجودة في النقطة التي هي مصدر الريح، مصدر كل ريح تهب على الأرض.. حكت لي أنها رات حيوانات خارقة وأن النهار هناك فيه ربع ساعة فقط وما تبقى فهو ليل، ومرات تطلع الشمس في عز الليل لتفاجئ الناس. وهناك.. قالت لي أيضاً إن القادم إلى جزيرة السعد، يتكلم لغة أهلها دون أن يتعلمها، كل ما يقال يفهم وكل ما تقوله أيضاً يفهمه الجميع..

كانت تحكي وتشرب الماء من «غراف» طيني وضعته أمي بجوارها كل دقيقة أو دقيقتين.. كانت تقاوم بالماء يبوسة فمها واشتداد وقساوة حبالها الصوتية.

ضاع صوتها فنامت دون أن تنهي لي حكايتها العجيبة في

جزيرة «السعد». في اليوم التالي تأخرت كثيراً في فراشها. في ذلك الركن الأقصى من الغرفة. ناديتها فلم ترد. أردت أن أتركها لراحتها. لكن إحساساً غريباً قادني إليها، إذ وجدت نفسي أهزها في فراشها. دون أن تتحرك، كان جسدها هامداً، ملفوفاً في فراشٍ صوفي على الرغم من أن الجوّ لم يكن بارداً، سحبت عن وجهها الغطاء، هزَزْتها ثانية، فإذا هي جامدة. ناديت على أمي، جاءت غير مكترثة لكلامي. وحين وجدت جسدها هامداً لم تتكلم. صمتت لحظات ثم قالت، وكأنما كانت على علم بذلك:

- ماتت.

لم تبك أمي. مع أنها كانت حزينة، خرجت على الفور لتعلن للجيران دون بكاء أو نحيب خبر الموت، انفجرت أنا بأعلى صوتي، ثم دارت بي الأرض. وجاءت أختي «حمامة» تجري وتجمّع الجميع في دارنا، وكثر البكاء مما جعل أمي تعصر البصل في عينيها كي تسيل دموعها الحجرية.

كان زهار حزيناً لموت «يامنة» خائفاً من صدمة الموت على قلب «حمامة».

أعرف أن زهار يدرك أن لي قلباً قوياً مع أن بكائي كان فوق كل بكاء. لقد علا حتى فوق صوت «البكّاءات» اللواتي أحضرتهن أمي لأداء واجب موت ابنتها.

كانت جنازة «يامنة» سريعة. دفنوها قبل سقوط الشمس. كان ابن بطوطة يسير في مؤخرة القافلة. لا يبدو عليه الحزن، بقدر ما كان يبدو خجولاً وكأنما هو الذي قتلها. حكايته عن الأكرانية يمكن أن تغتال فتاة حساسة مثل أختي.

كانت أمي تعلم أن أختي «يامنة» تتناول «الحشيش» على السطح، ولم تستطع منعها، وكأنما كانت تدرك أنها راحلة وأن عمرها قصير، في حين أنها تُعيب عليّ حتى مضغ العلكة في حضرة زهار.

كنت أعرف أن أمي تتنصت على كل حديث بين «يامنة» وابن بطوطة في جلساتهما على السطح. وأنها كانت مستعدة أن تتدخل إذا مارسا شيئاً غير الحكي وتبادل سجائر الحشيش. لكن أمي ومع مرور الزمن سقطت هي الأخرى في غواية الرجل أو غواية حكاياته. لقد أضحت تسمع حكاياته من تحت السور أكثر مما تراقب جلسته مع ابنتها، حتى أنها ما عادت تتعب نفسها في مراقبة ما يفعلانه خارج الحكاية.. ما كان يشغلها هو انطلاق لسان ابن بطوطة. الحقيقة أن أمي سقطت في عشق هذا الرجل، فلم تعد تتخلف ولا ليلة واحدة عن حكاياته.

الحقيقة أيضاً أن أمي هي التي دفعتني إلى كل هذا الذي سيحصل لاحقاً بعد أن دفنت أختي. إن مباغتتي لها وهي، ومن تحت السور، تسمع حكايات الرجل الذي يُجلس ابنتها في حجره على السطح، يشربان معاً الشاي ومن كأس واحدة، ويدخنان ذلك الشيء من سيجارة واحدة، كل هذا هو الذي دفعني إلى المغامرة في اتجاه السطح.

بدأتُ أتسلق حبال الحكاية والفضول:

حين فكرتُ في المغامرة في اتجاه السطح، في اتجاه ليالي ابن بطوطة. كسرتُ فنجان القهوة الخزفي، الذي ما عدت أرغب شرب القهوة فيه، وما عادت للقهوة شهوتها. لقد كرهتُ المرأة التي تطل عليّ من حفافيه كلما رشفتُ رشفة. كرهتُ وجهها وسجنها في جنة

تتقاسمها مع مخلوقات غريبة كاذبة، شبيهة بجزيرة «السعد»..
هواجس ابن البواب أو الواسطي!!

كسرتُ الفنجان فشعرتُ بأن المرأة التي سجَنها الواسطي أو صاحبه قد تحررتْ، وأخذتْ تبكي مع «البكّاءات» على أختي.

كنت أُلقي ببقايا الفنجان على الأرض بعنف، فأكاد أضحك أو أبكي، والذين جاؤوا للعزاء كانوا يعتقدون أنني فقدت أعصابي. الحقيقة أنني لم أكن أفكر فيها مطلقاً، كنت أريد أن أتخلص من هذا الطشقندي الذي أكلتُ من أصابعه الحلوى وبعض لحم الخنزير المخلل بطريقة عجيبة. كان خجله في البوابة يعجبني لكني بدأت ومع صوت أختي أشعر به ككيس ملح فوق رقبتي.

كانت وقفته مستسلماً لأولئك تحت شجرة التين، وهو يتنازل لهم عن جزء من عضوه التناسلي، كافية كي أقطع كل علاقة معه، الناس قالوا وبابتهاج: إن الطشقندي أكمل دينه وأن ختانه علامة على إسلامه، وأنه سيحج السنة القادمة وهو في طريق عودته إلى طشقند لجلب تجارته الشتوية. كل هذا الكلام.. كلام الناس لم يثمر في رأسي. أنا أعرفه جيداً. لقد كان فحلاً وهو بقطعته، بعضوه كاملاً كما ولدته أمه. ما كان عليه أن يتنازل عن أي شيء منه لغيري، عليه أن يكون كاملاً غير منقوص لي.

سأحدثكم فيما بعد عن الطشقندي. ذلك سرٌ، حين تتاح لي الفرصة، دون أن أزعج «يامنة» في قبرها ولا «حمامة» في عيني زهار.

لقد تكسر الفنجان، فتحررت الحيوانات من جنتها القاتلة بجمالها، وراحت المرأة إلى حيث أرادت، راحت حيث تشتغل بكّاءة

جنازات بعد أن تعبت من سجن الابتسامة المفروضة والمصنوعة باحتراف زائد.

ما عادت أمي تجلس أسفل السور، تتلقط وهج الحكايات النازلة من السطح. لقد توفيت أختي، وحين لم تعد الحكايات تُمطر، بدأت تبكي وبحرقة غياب أختي، فسال دمعها كثيراً، حتى أنها فقدت كثيراً من قوة بصرها، مما اضطرها إلى الذهاب عند طبيب العيون، ليصف لها نظارة.

كانت أمي، على الرغم من حزنها، وهي بتلك النظارة، مثيرة للضحك. كانت تسقط من على أرنبة أنفها كل لحظة. إلى أن اكتشفت حيلة جعلتّها تربطها بشريط حريري إلى عنقها. فارتاحت، وأصبح شكل أمي بالنظارة مقبولاً وعادياً وغير مثير للضحك بعد شهر تقريباً. بل إننا بتنا لا نستأنس بها إلا هكذا، وكأنما وُجدت بيننا من أول يوم بنظارتها.

حين تتمدد لتنام تسحب النظارة من على أرنبة أنفها، وتسلُّ الخيط من عنقها، ثم تضعها تحت الوسادة. لقد عاد إليها النوم إذ لم يعد في السطح مطر من الحكايات، فليس هناك سوى نباح وحمحمة «الدوتشي» الذي فقد صوته مع موت أختي.

باب الغواية

هل هو فضول أم أن أمي هي التي دفعتني إلى ذلك؟

هذا العصر شربنا القهوة ولأول مرة منذ وفاة «يامنة»، في باحة الحوش. وجدتُ في القهوة متعة غير عادية، كما اكتشفتُ في ملامح أمي أشياء مبهجة، كان وجهها يقول من خلال حُمرة وجنتيها، ومن خلف زجاج نظارتها، إنها مقبلة على فرح كبير بعد أن حزنتْ كثيراً لموت أختي، خاصة بعد أن أدركتْ أنها كانت أساس اللذة التي كانت تمطر عليها من السطح.

أبناء أختي الثلاثة، يشربون القهوة سوداء ويمضغون الخبز بالمربى المصنوع من المشمش وهم يضحكون ويقهقهون وكأن شيئاً لم يقع، كأن أمهم لا تزال نائمة في تلك الغرفة، في ذلك الركن، أو أنها تقابل «شقفة» المرآة تكحّل عينيها، تخفي صفارهما استعداداً للصعود إلى السطح مع نزول الليل من السماء.

بهجة أمي وضحك أبناء أختي هو الذي جعلني أبحث عن طريقي إلى السطح.. إلى السماء.. إلى الملكوت الذي غادرته أختي.

نظرت إلى السلم الخشبي الذي كانت تستعمله يامنة للصعود

إلى عرشها بين الأحواض. لا يزال في مكانه واقفاً، حائراً، لم تحركه يدٌ وكأن الذي تركه هناك ينتظر من يستعمله بعد أختي.

قلت في نفسي، «حمامة» فهمت ما يدور برأسي:

- إما أن نستعمل هذا السلم أو نزيحه من مكانه. أختي من جرأتها لم تكن لتحمّل نفسها عبء إعادة السلم إلى مكانه في الإسطبل، بل كانت تفضّل أن يظل هناك صيفاً وشتاءً، حتى أضحى ذلك هو مكانه الطبيعي. وأن من أراد استعماله في إنزال الستائر للغسيل أو تعليقها على النوافذ بعد ذلك، عليه أن يعيده فوراً إلى هذا المكان الذي يؤدي إلى باب السماء.

لأول مرة أدقق النظر في السلم الخشبي، أعدُّ لوحاته الأفقية، على كل هو ليس أكثر من لوحتين طويلتين متوازيتين، مربوطتين بمجموعة من الألواح الصغيرة أفقياً والتي عددها ثمانية.

لهذا السلم حكايته، الآن فقط أنتبه إليها، أتذكرها، إن السلم من صنع زوج أختي الذي هجّ ذات ليلة دون أن يخبر أحداً، لقد صنعه يوم ثلاثاء، إذ اضطرت العائلة إلى ذلك، لقد كنا نستعد للاحتفال بختان طفله البكر، فكان علينا أن نعلّق راية خضراء. على واجهة الباب، فلم نفلح في مهمتنا على الرغم من أننا استعملنا ظهر الحمار، والطاولة التي كان يكتب عليها ممثل الحكومة حين يجمع الضرائب أو يسجل الشباب الذين بلغوا سن الخدمة الوطنية، هذا الفشل هو الذي دفع زوج أختي إلى هذه الفكرة الرائعة والتي حلّت مشاكل كثيرة منها: تعليق وإنزال الستائر من النوافذ العالية، وكذا مسْح نسيج العناكب في زوايا الغرف ذات السقوف العالية أيضاً، وايضاً نفض الزيتون في الشجرة الوحيدة التي تتصدر الحوش، والتي تثمر ما قدّره كيسان

كبيران من الزيتون الجيد، الكيس الأول يستعمل للعصر، حيث تستخرج منه أمي دلوين من زيت الزيتون الصافي، تستعمل دواءً لجميع الآلام، بما فيها آلام العادة الشهرية، كما تستعمل لعجن سميد خبز المخلع، ولدِهْن شعر الرأس خوفاً من هجوم الشيب، أما الكيس الثاني فكانت تصبّره بطريقة رائعة، حيث تُجرح كل حبة زيتون، ثم تملح وتخلل بالليمون ثم يوضع الكيس بزيتونه المعالج تحت صخرة كبيرة، ليبقى مدة طويلة لا تعرفها إلا أمي. كان هذا الزيتون المصبّر يستعمل عادة للفصل بين الصوم والإفطار في شهر رمضان، وفي السحور للفراق بين الأكل والإمساك. وكنا نستعمل السلم أيضاً للصعود إلى السطح لمراقبة هلال ليلة الشك في أول يوم رمضان، كان الجميع: الرجال والنساء والعواتق والأطفال يصعدون لمراقبة الهلال، وهي الليلة الوحيدة التي كان يسمح بها الصعود إلى السطح، كان ابن بطوطة، يساعده في ذلك زوج «يامنة»، يشرف بنفسه على هذا اليوم حتى لا تداس أحواضه، وبمجرد رؤية الهلال توزّع كؤوس الشاي وبعض الحلويات والكعك. خاصة الذي كان يشترى خصّيصاً لهذه المناسبة.. أما ليلة شك العيد، ليلة مراقبة هلال العيد، فكان لا يسمح فيها بالصعود إلى السطح سوى للرجال البالغين أربعين سنة وما يفوق هذا العمر. أما البقية فكانوا يتجمعون في حوشنا أسفل السور، ينتظرون في هدوء ما يعلنه الذين في الفوق. بالنسبة لاحتفال ليلة العيد بعد التأكد من رؤية الهلال، فكان يقام في باحة حوشنا بإشراف: زهار وزوج أختي وابن بطوطة.

لقد كان السلم هو طريقنا إلى الله.. إلى عبادة الله وطاعته في الإفطار وفي الصيام. لكم هو ذكي زوج أختي، وله من الحسنات ما يغطي كل سيئاته وأخطائه ومنها هجرانه أختي وأبنائها. لو بقي ذلك

السبع لبنى لنا سلالم إسمنتية تؤدي إلى السطح، ولأقام لنا منظاراً مكبراً خاصاً بهاتين الليلتين الأساسيتين في حياة المسلم.. لكن.. أعرف أن الله سيسامحه، وأنه معه حتى في كبائره.

الآن أشعر أن السلم عليه أن يكون هناك، وفي ذلك المكان، وبتلك الطريقة، وبذلك الحجم، وبذلك العدد من اللوحات الأفقية، وبتلك المسامير. أدرك الآن أن هذه الدار الكبيرة بغرفها وحوشها بُنيتْ بهذه الطريقة لتتناسب وموقع السلم، فهو سابق عليها في الوجود. لقد كان زوج أختي بارعاً في قياس المسافة بين اللوح واللوح. وكأنه كان يعرف مسبقاً أن هذا السلم ستستعمله النساء أكثر من الرجال، لذا فقد قلص من المسافة بين الدرجات، وكأنما كان يقوم بذلك على قياس خطوات زوجته التي أكلها صفارٌ في العينين.

على الرغم من أنه هو الذي نظّم لوحات السلم على خطوها، كي تصعد إلى السطح، إلا أنها لم تذكره قبل موتها. لقد قطعت كل حديث عنه، عجيب!! حتى بتنا لا نتجرأ على ذكر اسمه. مع ذلك كنت أحس بشيء آخر في قلبها، كنت مرات أشعر وهي تحدث الطشقندي، لتسأله عنه، وهو الذي يجوب الأرض طولاً وعرضاً ببغلته وسلعته، كانت تسأله دون أن تفصح: أما صادف رجلاً فيه ملامح مصارع الثيران في الخفة والرشاقة ونظرات اللصّ المحترف. كانت تتشمم في جُمَلِه كلٍّ صغيرة من أوصاف الرجال الذين يتحدث عنهم الطشقندي، والذي يبالغ في ذكر أصناف الرجال إذ يكتشف اهتمام أختي بذلك ويكتشف قليلاً من ضرورة وجوده واهميته، كان يتحدث مقاوماً ضعفه اللغوي مخلوطاً بين العربية والبربرية. لقد وصل الأمر بأختي أن طلبت من الطشقندي أن يقرأ لها قائمة أسماء الرجال المسجلين في

دفتر ديونه.. ومرات أخرى كانت تتبع حكايا ابن بطوطة في أسفاره ورحلاته في مدن العرب والعجم لتتأكد من أن كل الذين يحكي عنهم لا يشبهون ذلك الذي فيه من خفة ورشاقة مصارع الثيران.

في أيامها الأخيرة لم تكن «يامنة» تتحدث سوى عن رجال عرفهم الطشقندي أو ابن بطوطة، وكأنما تعرفهم واحداً واحداً، مما أثار خوفي فطلبت من «حمامة» أن تطلب من ابنها البكر أن ينتقل لينام معنا في هذه الغرفة، إلاّ أن «يامنة» رفضت طلبها، بحجة أن ابنها أصبح بالغاً، وأن الشيطان يمكنه أن يتمدد إلى جانبه، فيمد يده إليّ أو إلى «حمامة»، فتطلع رائحة الحرام من بيتنا.. من بيتٍ حجٍّ فيه الأب ثلاث حجّات ومات في الرابعة بالسودان، فأكل لحمه السودُ هناك، كان يتمنى أن يكون موته بجوار قبر الرسول، أنانية كبرى، كبيرة كبرى، مع ذلك فأمي تصرّ أنه مات وهو يمسك بيده على شاهدة قبر الرسول، وأنه دفن هناك، كانت أمي ترسل كل سنة مع حجاج الناحية، بعض النقود، موصية إياهم بشراء أضحية ينحرونها صدقة على قبره، وأن يطلبوا له الرحمة ويسلّموا على ترابه، ويُطمئنوه أن الجميع بخير، وأن الأهل والأحفاد فرحون لموته هناك، لأنه سيكون يوم القيامة إلى جانب الرسول يفتح معه أبواب الجنة ويشفع لنا عند سيد الخلق، ويطلب لنا منه مغفرة الذنوب التي ارتكبناها على السطح أو على الأرض أو على الماء، أيام الصيام أو أيام الإفطار.. في الليل أو في النهار.

رحمتك كبيرة يا الله.. وشفاعتك بدون شاطئ يا مصطفى المختار!!

لم يعد زهار هذا المساء و«حمامة» منشغلة لذلك، إذ لم تشرب قهوتها ولم تتحدث في أمور الدين التي تزعج أمي.

هذا العصر، ولأن زهار غائب، لم نتحدث عن شيء مهم. كانت أمي تريد أن تقول لي شيئاً ما. وأن عينيها تدفعاني إلى ارتكاب أمر ما. تحدثنا قليلاً عن ديون أختي التي يطالب بها الطشقندي، أمور بسيطة: ثمن الكحل الإيراني الحار، وقليل من البخور الهندي، والمشط المصنوع من حوافر الخيل. بدتْ صورة الطشقندي وهو يطالب أمي بديون أختي مقرفة وقميئة. لم ننه حديثنا إذ أراق ابن أختي قهوته الساخنة على حجره. قصت أمي حبة بطاطا وحكّت له فخذه حيث سالت عليه القهوة.

حين سكت ابن أختي من بكائه الحاد، حيث سرقه النوم مبكراً على غير عادته، كانت الشمس قد رحلت، والناس تستعد لاستقبال شهر رمضان، حيث يتم تخزين الأكل والدقيق والحطب، وغسل وبرنقة أو زأبقة قدور الحريرة. قالت أمي وقد شعرت ببرودة ما:

- هذه السنة سيكون شهر الصيام ساخناً.

تعجبت كيف أنها تشعر بالبرد وتتحدث في الوقت نفسه عن الحرّ. يبدو أن أمي مثل أختي بدأ رأسها يمتلئ بالمخلوقات العجيبة التي خرجت من حكايا مزارع الأحواض على السطح. وأن رأسها بدأ يدور كأنما به مرض «الشقيقة».

رميتُ الملاءة، التي نغطي بها الخبز عادة. فوق ابن أختي بعد أن أحسَسْت أن قشعريرة برد تلسعه، ربما من جرّاء ماء البطاطا الذي لم ينشف بعد من على فخذه.

حين هممت بالانسحاب، بعد أن شعرت بتعب وبأعصابي مرهقة جراء انشغال بال «حمامة» على تأخر زهار، قالت لي أمي:

- غداً نسبع قبر أختك.

سبعة أيام يا الله، سبع ليال مضت، وهي هناك نائمة في كحلها وبخورها.. سبع ليال والسطح لم يمطر حكاية.

سأصعد الليلة إلى السطح.. هكذا قررت. سأتبع خطوات «يامنة»، ولو أني أخاف صفار العينين.

سأصعد السلم.. لا سامحك الله يا زوج أختي.. صنعت هذه الألواح فتركتها لزوجتك لترحل بدورها فتعلقني بها.. لا سامحك الله.

دخلتُ الغرفة، سحبتُ كحل أختي وبخورها وبعض قنينات عطرها من حقيبة سوداء صغيرة كانت تصر يامنة أن تقفلها بعناية، هذا ما تبقى من أختي، إنها الأشياء التي رفضت أمي دفنها مع «يامنة»، بحجة أن هذا من عمل «آل فرعون» «أصحاب الجاهلية».. أردت أن أكحل عيني، وأن أتبخر وأتعطر كي يكون الصعود كما كان.. وحتى لا تتزلق قدماي من على لوحات السلم الأفقية، وحين أخرجت الكحل والبخور والعطور، خفت، تملكني إحساس غريب، ارتجفتْ أصابعي فأعدت كل شيء إلى مكانه كما كان، وقفت عند عتبة الغرفة، كان السلم فاتحاً ذراعية والسطح هناك في سمائه. تلك السماء التي أصابتها لعنة فما عادت تمطر حكايا على رأس أمي التي بدأ شعر رأسها يشيب بسرعة، على الرغم من أنها أصبحت تدهنه بالزيت الحرّ مرتين في الأسبوع، وتطليه بالحناء مرة كل أسبوعين.

أكانت «يامنة» حين تصعد إلى السطح تأخذ معها شيئاً لتجلس عليه؟ سؤال غبي.. إن أختي كانت تجلس في حِجّر ابن بطوطة.. إنها لم تكن لتشغل نفسها بهذه الأمور التافهة.

أعرف أن أمي كانت تضع «جلد» خروف لتجلس عليه أسفل السور، تنتظر سقوط زخات الحكايا القادمة من الشرق والغرب.

لماذا جاء الليل بسرعة؟! ما كان الليل ليسقط بسرعة، البارحه وقبلها وقبلها انتظرت حتى تعبت.. واليوم هاهو الظلام قد داهم بيتنا بسرعة. لم أعرف هل أني ذهبت إلى السلم، أم أنه هو الذي جاءني.. فتناول قدميَّ المتمنعتين ووضعهما على أول لوح من الثمانية.. فمشيت.. كنت أشعر أن السلم حزين لأنه أهمل منذ أسبوع، فما عاد أحدٌ يستعمله بعد موت يامنة. كأني لم أصعد أبداً إلى هذا السطح.. وكأني لم أتفرج من هذا العلو على ختان «الطشقندي» الذي أسلم كي يتزوجني.. جاءتني ضحكة.. هذا ليس وقت الضحك، فغداً نسبّع قبر يامنة.. خفت أن تكتشف أمي أنني هنا في هذا المكان الذي تحبه هي الأخرى. مع ذلك كنت شبه متيقنة أنها تتبعني بعينيها اللتين تريان ما تريد رؤيته دون الاستعانة بنظارتها التي ما عادت تثير الاستغراب فوق عينيها.

كنت أتوقع أن أجده هنا. يدخن ويحكي نهاية حكاية «لوفا» الأكرانية التي أثارت غيرة أختي وربما أمي أيضاً. هنا على هذا السطح الذي يعلو على الأرض بحوالي أربعة أمتار، أشعر ببرد أكثر، لسعة برد تدخل أطرافي، فأشعر بألم في بطني وفي عينيّ.. لم أفكر في «صفار» العينين، ولكني تذكرت أنني تركت ابن أختي بغطاء خفيف.. بعض الأضواء تعلن عن أنه الليل.

أين كانت تجلس يامنة؟

لا أحد فوق السطح سوى «الدوتشي»، ذلك الكلب الذي جاء به ابن بطوطة جرواً من مزرعة قريبة من فرانكفورت. كان يؤكد دائماً

انه احضر كلباً المانياً، وفي هذه الجملة ما يوحي بالتهديد وإنذار كل من تخول له نفسه الصعود إلى السطح. منذ أن جاء بالدوتشي جرواً صغيراً لم يغادر السطح، لا صيفاً ولا شتاء، وعلى الرغم من شراسته البادية في شكله إلا أن ارتخاء أذنيه كان يكذّب تلك الشراسة، وكذا نباحه المتكاسل عند الفجر وعند نزول الليل.. نباح مبحوح وبارد.. خفت أن يهجم عليّ أن يفكّكني، وإنّه «الدوتشي» وما أدراك ما «الدوتشي». رفع عينيه إليّ، حاول أن ينصب أذنيه إلاّ أنه وجد صعوبة في ذلك ثم عاد ليدفن جثته في الظلام. اقتربت منه بعد أن أدركت أنه لم يستنكر وجودي، وكأنّما كره عزلته ووحدته هنا. رفع عينيه إليّ، عيناه تشبهان عيني أختي، سبحان الله، إنها هي، عادت في هذا الكلب، استأنستُ وخفْتُ، آنسني الكلب وخفْتُ من أختي فيه. أخت سنسبع قبرها غداً. سلّمت عليها فردت السلام، هو صوتها، لولا أن فم الكلب هو الآن يتحرك. قوتك كبيرة يا ربّ. حاولتُ أن أقفز لأعانقها.. إلاّ أن حركة ذيل الدوتشي نبهتني إلى أنني في حضرة كلب ألماني وفقط، فتراجعتُ بعد أن شعرت بالرطوبة تحت قدميّ، وإذا بجسمي يتشوك، ليقف كل شعره، أحسُّ بالنمل يصعد من الوركين إلى الصدر فالوجنتين، فأحاول أن أهرب: أأهربُ عند أختي المندسة في جسم الدوتشي، أم أهرب إلى سلم زوجها الذي تجلس عند لوحته الأفقية الأخيرة أمي تمسح نظارتها بفوطة الحمّام.

رفع الدوتشي عينيه، نظر إليّ، غابتْ أختي. فلم يبق غير بؤبؤين خاويين تماماً. عدتُ استأنست بالكلب الذي أخافني في البدء. بدا السطح موحشاً، وكأن لا أحد مرّ من هنا أو جلس الليل كله يشرب الشاي المغلي فوق هذا المجمر الصغير المطفأ. كأن كارثة، طوفاناً، ضرب كائناته الكثيرة التي كانت، ولا يمكنها أن تعيش إلاّ في عوالم

الحكاية التي تشبه رسومات الفنجان الخزفي الذي كسرتُه وندمتُ على ذلك بعد يوم واحد. كائنات كانت تملأ السطح وأرضية الحوش وتملأ أختي حتى تفيض من عينيها، وتملأ قلب أمي.

الآن أنتبه إلى شيء عجيب، فالمزارع الذي نظم الأحواض فنان كبير، إنه لن يكون سوى ذلك الذي رسم تلك الرسومات العجيبة والمرأة المبتسمة على الفنجان البورسليني، لقد رتب الأحواض بطريقة تجعلك تميّز وجه طفل يحمل إبريقاً كبيراً فوق رأسه حين تواجهها من الجهة القبلية، وحين تواجهها من الجهة الغربية فإنها تبدو في شكلها شبيهة بجَمَل يحمل هودجاً.. أحاول الآن أن أدقق النظر من الموقع الذي أقف فيه وهو الجهة الغربية، فإذا ملامح الجمل ذي السنمين والهودج تبدو واضحة. نظرات الكلب إلى جسدي الأنثوي لم تترك لي فرصة التأمل أكثر لاكتشاف أشكال أخرى مركبة في وضعية التعامل أو التقابل أو التواري بين الأحواض.. إن يداً حساسة للعلاقة ما بين المساحة والمسافة والضوء وقوة النظر هي التي وضّبتْ هذه المزرعة المعلقة هنا على هذه السطوح الترابية، التي يجيؤها ابن بطوطة ليكتب ويحكي حكايات عن أصقاع الدنيا.

تكحّ أمي عند أسفل السور، أشعر بها مؤنسة، فأتمادى أكثر في تأمل هذه الأشكال التي ساعد ضوء القمر على إظهارها بشكل نهاري واضح.

سأنزل. فابن بطوطة لم يجئ الليلة لكتابة أسفاره وكذبه وقراءة ذلك على أختي.. سأعود إلى فراشي.. سأعود إلى فراشي.. السلم هناك، ومن هذه النقطة سأتدلى، لتسقط الرِّجل في أعلى لوح أفقي في السلم، حتى وإن أخطأتْ رجلي مكانها في السلم، فإن أمي ستنبهني إلى ذلك. إن عينيها عليّ.

سأنزل.. سأعود إلى فراشي بأول خيبة.. لقد هجّ ابن بطوطة هو الآخر كما فعل زوج أختي، بعد أن دفنها. عرف ابن بطوطة أن لا أحد سيشرب معه شايه ويدخن معه ما يدخن، ويسمع منه حكاياته التي يدونها في مجلد كبير أحضره معه من مصانع الورق على ضفاف النيل. كان ابن بطوطة يتلذذ هو الآخر للغواية التي تخلقها حكاياته بشخصياتها العجيبة التي تمنى لو أنه رآها فعلاً، على أختي وعلى أمي أكثر التي كان يعرف جيداً أنها عند أسفل السور، والتي لم يتجرأ ليلة واحدة أن يرسل لها كأس شاي.. كان يريد أن يعذبها أكثر مما يعذب أختي.

مرات أقول أنه كان يحكي لأمي أكثر مما كان يحكي لأختي.. يامنة كانت تعرف ذلك فماتت بسرّها وكرهها لأمي، لأنها شعرت أنها بدأت تسرق منها ابن بطوطة شيئاً فشيئاً وتجذبه إلى الأسفل.

تلك الأمور لا تحدث إلا بقدرة قادر.. إن الله الأعظم أراد. فلولا أنها مكتوبة على دفتره ما كان حدث الذي حدث. إنْ لم يكن كذلك فلماذا لم تحدث الحادثة البارحة أو قبل البارحة.

إن الله تبارك وتعالى يعطي الأعمار ويعطي معها وقتها المحدد، فهو -أعني الله سبحانه- حين يريد أن يسحب الروح ويعيدها إليه، كي يلصقها في مكانها بذلك العنقود الكبير حيث تجتمع كل حبات الأرواح دون تمييز في الدين أو اللون، فإنه يصنع لها حادثة. سبباً صغيراً أو كبيراً أو متوسطاً.

- أنت يا سيدي في الحكومة التي تمثل ظل الله على الأرض، فأتمنى أن تكون وضعية زهار حسنة.

ثم أضاف بعد أن أدرك حيرة رجال الدرك، فيما أصاب زهار داخل المقبرة:

هذا التليفون يرن.

مزعج صوت الغراب الذي لا يرسل إلاّ نشيداً للخراب.

من أنت أيها الصوت.. أيها الناعي؟

اليوم: يوم جمعة.. يوم مبارك عند المسلمين.. والشهر: شهر رمضان مبارك أيضاً عند المسلمين أجمعين سنّة وشيعة وكل ملِلهم ونحلهم..

كعادة جمال الدين زعيتر.. يمر كل جمعة بالمقبرة بمدينة قديل على بعد عشرين كلم عن وهران، ليترحم على قبر أمه.

الأم غواية حبها حتى الموت.

جمال صحفي كاتب وباحث في الشعر الشعبي، عاشق لأشعار مصطفى بن إبراهيم وبن كريو ومحمد بلخير وبن قيطون..

عاشق للشعر الملحون.

هذا الصباح من هذه الجمعة الحزينة.. على قبر أمه.. قرأ الفاتحة وربما شيئاً من الشعر الجميل.. فالعرب كانت تقرأ على الأموات عيون الأشعار.. رصاصٌ مخادع أسود ماكر يخترق قلبه.. فتطير الروح ويسقط الجسد على قبر الأم.. يسلّم الروح بين يدي روح أمه.. ويذهب وهو لا يزال مفتوناً بالشعر وفسيفساء عمارة مسجد الأمير عبد القادر بقسنطينة كان يقول الشعر في زوايا الجامع والموسيقى في زوايا الأشكال..

رحل جمال، دون أن يقرأ مقاله الذي كتبه عن علولة في مجلة «الطريق» اللبنانية...

زهار.. أكثر من خمسة وثلاثين سنة وهم ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام فيك.. في المقبرة كانت فرصتهم.

ترحل القرية بنسائها ورجالها لزيارة زهار في المستشفى الذي نقل إليه في القرية المركزية.

النساء بدأن تحضير الأكل وخبز العجين.

حضرت البغال والحمير والأحصنة. ومُلأ خزان الجرار الوحيد في القرية بالمازوت.

إذا كان حياً سنحتفل به في ساحة المستشفى. وإذا كان عمره قد نفد مخزونه من الأيام، فسنعيد جثته على ذات الجرّار الذي نقله كي ندفنه هناك.. لقد تم حفر قبره اللحظة في المكان الذي اختاره بنفسه جوار «لآلة حدّو»، التي كان له معها علاقة خاصة لا أحد يعرفها سوى ابن بطوطة والذي سيسجلها في مجلده بعد أن يجد من يسمع هذه الحكاية.

في قريتنا عادة غريبة، إذ الواحد منا، حين يبلغ سن الأربعين، يذهب في جمع غفير من المسنين إلى المقبرة، فيدور ما بين القبور ويسلّم على نزلائها. ويسأل عن أسمائهم واحداً واحداً، ثم يختار له جاراً، فيقول: هذا قبري، إشارة إلى المكان المجاور، ومن يومها يظل هو قبره، حتى ولو مات في السند أو أكله الحوت، فإن قبراً رمزياً يحفر له وتوضع له شاهدة ويسمى باسمه. حدث لنا ذلك مع الحاج ميمون كواكي. الذي حج فمات كما تقول زوجته وهو يشد على شاهدة قبر الرسول، فدفن هناك، إلا أننا صنفنا له قبراً هنا، وقبره محترم.

وإذ تبيّن لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود، في البداية دار محرك الجار بصعوبة، إذ أن البطارية نافدة أو تكاد.. ركب الجميع دوابهم، بعد أن تكفّل أحدهم بأداء مهمة الساقي، إذ كان يقدم القهوة السوداء للرجال أولاً.. كانت القافلة تتحرك، وهو واقف على قارعة الطريق يحمل إبريقاً كبيراً على مجمر، فيناول الواحد فنجان القهوة، يشرب دفعة واحدة، يرد له الفنجان فارغاً ويمضي، دون أن يقول كلمة واحدة. لا داعي لشكر الساقي فذلك واجب، وإذا شكرته

فقد أهنته وربما تقوم حرب بين القرى لأجل ذلك في الانتخابات البلدية القادمة. حدث ما يشبه ذلك في الانتخابات الماضية.. عفواً ليست الأخيرة بل التي سبقتها.

تحركت القافلة على النظام التالي: الإمام على رأس الجميع راكباً بغلته التي قيل إنها حبلت لكنها أجهضت في شهرها الرابع. إلى يمينه ويساره أربعة شيوخ ملفوفين في برانسهم الحمراء إذ لا يظهر من وجوههم أي شيء. إنهم ممثلو القرى المجاورة التي تحيط قريتنا: قرية الفاسول وقرية فرنان وقرية الرمان وقرية آيت دامت، يعتقد الكثيرون أن من بين الأربعة امرأة تلبس لباس رجل وهي زعيمة قرية آيت دامت، والدليل على ذلك أنها الوحيدة التي تريد أن تُظهر رجولة كبيرة في استقامة الجسد وفي انتصابة الرأس، وأنها الوحيدة التي تركب بغلاً في حين يركب الباقون بغلات على تقليد الإمام.. لقد جاء الأربعة بأكباش وأكياس قمح مطحون وعجل ذي حولين وسكر وقهوة محمصة مطحونة ومفلفلة وصابون طرف ومدقوق.. لقد جاؤوا بكل ما يجب أن يجاء به، قبل منتصف الليل كانوا على أطراف قريتنا ينتظرون إقلاع القافلة، وأن الرجل، الذي يبدو أنه هو الآخر امرأة، والذي كان يناول الجميع القهوة جاء معهم، وأنه من قرية آيت دامت.. على كل بين القرى ما يجمع أكثر مما يفرق: مصاهرات وإرث مشترك ومقابر مشتركة وخصامات ودم مراق ومرق احتفالات و.. بعد رأس القافلة يسير الرجال على مركوباتهم. يريد الواحد منهم أن تكون بغلته خلف بغلة الإمام مباشرة، فذلك موقع الوجهاء في السير ودستور الرحلات. بعد الرجال كنا نحن النساء.. كنا كثيرات، ولم تنس واحدة منا حزنها.

على العكس من ذلك فقد نسي الرجال ما هم ذاهبون لأجله، بدأت أشعر أن تَلَهُّف الرجال للالتحاق بالإمام وصَحْبِهِ الأربعة، هو في الحقيقة هروب منّا، إذ كانوا خائفين أن تختلط مركوباتهم بمركوباتنا. إن تلهُّف الرجال على ألا يتركوا أية خطوة بين دوابهم ودواب الإمام وصحبه، كان يثير مركوباتنا نحن النساء أكثر التي أغلبها من الحمر القبرصية الهائجة والتي بدت تبذل كل جهد كي تلحق بمركوبات الرجال والتي أكثرها بغلات.. كانت مركوباتنا تتشمم أشياء مركوباتهم.. بعدنا يجيء الأطفال والشباب راجلين أو متعلقين في الجرّار، معلقين بسخرية على تهيُّج مركوباتنا على مركوبات الرجال. غباء الآباء.

انطلق صوت مهلل الفجر من على دابته، يرتل شعراً في مدح الخمر والرسول وناقة صالح، فانفجرت «حمامة» بالبكاء.. وتبعها الرجال فبكوا إلا المرأة / الرجل التي من قرية آيت دامت فإنها لم تبد دمعاً ولا حزناً.

طلب الإمام من الجميع التوقف لأداء صلاة الفجر، وقد اختار مكاناً منبطحاً، وبدت عليه البهجة إذ سيؤم كل هذا الخلق، إلاّ أن الذين اصطفّوا خلفه لأداء الصلاة لم يكونوا أكثر من عشرة. مما جعل المرأة / الرجل التي تمثل قرية آيت دامت تضحك بصوت واضح.

وإذ عدنا لمواصلة السير، كان صاحب القهوة، يسقي الجميع من إبريقه الموضوع على مجمر معمول على خرج مصنوع من أعواد «الدفلة».

القهوة للرجال

الشاي للنساء

قبل أن ترسل الشمس أول شعاع، كان رأس القافلة يدخل القرية الرئيسية. ولأول مرة تساءلت «حمامة»

- من قتل زهار؟

على الرغم من أن الساقي نخس بغله الأحمر والذي ازداد لونه إشعاعاً مع ضوء الشمس، ليتقدم الجميع كي يَدُلَّ الخمسة في الرأس على الطريق المؤدي إلى المستشفى، إلا أن الأمر لم يكن ليتطلب كل هذا التعنيف للبغل، إذ يكفي أن تقطع الشارع الرئيسي، حتى مدخل القرية من الجهة المقابلة لتجد المستشفى هناك، والذي ليس أكثر من ثكنة عسكرية قديمة تعود إلى السنوات الأولى للاستعمار.

حاول البواب ذو الساق اللوحية أن يمنع القافلة من الدخول، بإبراز ورقة بثلاثة سطور وختم كبير، أثارني عرجه. فهو يمشي وكأنما يرقص. كانت «حمامة» هي الأخرى منشغلة بشكل وحركة البواب الذي تقدم منه ساقي القهوة، فناوله فنجاناً، ليس كتلك التي كنا نشرب فيها، فنجان خزفي عليه رسوم ونجوم، ثم مده كيساً مليئاً، فجعجعت ساقه اللوحية أكثر، وأسرع خطوة يفتح الباب الذي تصدأ وَتِدَ زَكْرومِه، فصعب سحبه من ثقبه، فوجه الكلام لساقي القهوة وكأنما يعرفه منذ نصف قرن أو يزيد:

- إن هذا الزكروم لم يُفتح سوى مرة واحدة، وذلك يوم زيارة الرئيس.

ضحكا معاً، وقد رُفعت بينهما كل كلفة وتكلف، مما جعل الساقي يعرض عليه سيجارة، اعتذر لذلك البواب بحجة أن زوجته تكره رائحة التبغ.

تموقع الجميع في الساحة، قال البواب للساقي، وهو يطلبُ منه ملء فنجان قهوة:

- هذه الثكنة كانت في أيامها هكذا مليئة بالبغال والخيل.. أبي كان يشتغل علاّف دواب الجنود قبل أن تجيء السيارات والشاحنات.. لقد عادت لأيامها وكأن الدواب عرفت فندقها.

تحدث الإمام مع مُمرّض يبدو أنه يقوم مقام طبيب المناوبة، ربما لأن الطبيب لا يزال نائماً في حضن الممرضة التي يعشقها.

فتحت جميع النوافذ المطلة على الساحة، وخرج المرضى في الأول بعضهم يجر ساقه جراً، والآخر يحمل ذراعه معلقاً بسربيتة أو خرقة بيضاء في عنقه.. ثم تَلتهم الممرضات بعضهن بمآزر بيضاء وبعضهن بلباسهن العادي وبزينة مبالغ فيها.

كان الممرض الذي يبدو من انشغاله لأمر اقتحام المستشفى، أنه المناوب، يتحدث بالفرنسية إلى الإمام، ولأول مرة أدرك أيضاً أن الإمام يتحدث هذه اللغة دون عقدة.

سبحان الله -قالت امرأة- اللسان الذي يسيل منه كلام الله وسيد الخلق، تسيل منه لغة الكفار.

كان الفقيه كي يثير صحبةُ الأربعة، يختار كلماته ونحو جمله وطريقة نطقه بشكل مسرحي مثير.

سار الممرض في رواق طويل شبه مظلم ورطب، وخلفه سار الفقيه الذي ملأ الرواق وغطى الممرض إذ بدا حجمه وجسده كاللعبة الصغيرة أمام جثة الإمام الذي كان يجرجر خلفه قصداً جناح برنوسه الوبري الذي ستر به الطشقندي لحظة ختانه.

اختفيا في مكتب ليخرجا بعد لحظة، وقد تغيرت ملامح المرض وقد بدا ودوداً وطيباً تجاه الإمام، هذا الأخير الذي على العكس من ذلك انتفخ صدره أكثر وازدادت جثته كبراً وخطواته وثوقاً.

نادى الإمام على صحبه الأربعة، في حين كان الجميع في الساحة يتبادلون كؤوس الشاي والقهوة، بما فيهم المرضات والمرضون الذين استأنسوا بالدواب داخل المستشفى الذي عادت له ذاكرته أيام كان ثكنة بخيلها وبغالها وعلافيها.

قال الإمام بعد أن عاد مخاطباً الجميع:

- سنأخذه معنا.

وأعطى إشارة تحرك القافلة، قبل أن تسطع الشمس أكثر.

لم يترك لأحد فرصة السؤال عن زهار

أخرجوه ملفوفاً في غطاء قطني مخطط، كان المرض المناوب وبعض الآخرين والمرضات قد وضعوا زهار بعناية على الجرار، نفس الجرّار الذي أحضر فيه.

كانت «حمامة» صامتة.

طريق العودة كان سريعاً، وموزّع القهوة أطفأ مجمره، ونفض قاع إبريقه من حثالة البن. كان يمشي ساحباً بغله وسط الرجال حزيناً.

كان أكثرنا حزناً، ربما مثله مثل «حمامة».

وإذ وصلنا، نُصبت الخيام التي كانت من المفروض أن تنصب

في ساحة المستشفى، وأمر الإمام النساء أن ينهين أعمالهن في تحضير الكسكسي بالكابوياء الصفراء، قائلاً وهو يتتبع عيني «حمامة» معلقة في زهار الذي رُفع اللحظة من فوق الجرّار:

- ستكون جنازته غداً.

وانفجرت البكّاءات.. لقد بدأت مهمتهن الآن ولن تنتهي إلا بتسبيع قبر الميت.

مات زهار

من اغتال زهار؟

من أين سقط زهار؟ أي سماء أرسلته إلينا؟

كان ابن بطوطة غارقاً في أوراق مجلّده وفي كيمياء حبْره التي تعلّم نسبها، في الصين وفي ترتيب وقص ونجارة قصب أقلامه. كان حائراً أكثر من حيرة أمي التي سلمتني للسلم وعادت لتنظم بعض أغراض «حمامة» التي تكورت في ركن بعد أن فتحت لأول مرة منذ أن دخلت بيتنا كتابها الذي أحضرته معها والذي ما فتئت تخفيه بعناية في فوطة داخل حقيبة مصنوعة كما تقول من جلد الغزال.

كانت تقرأ وتبكي.

قالت لي أمي قبل أن تسلمني إلى السطح:

- لا يمكن أن يُغتال أحدٌ في القرية دون أن يعلم بذلك ابن بطوطة ولو كان في الهند أو السند أو زنجبار أو الدومان، له ما في بطون الكتب وبطون الناس وبطون الأماكن. ولا يمكن أن يُدفن أحدٌ إلا

إذا دُوِّن ذلك في مجلّده الذي كلما انتهى من تسجيل أشياء فيه إلا ودفنه في قبر في المقبرة، ليعود فيسحبه منه كي يدون أمراً آخر عاشه هو أو عاشته القرية في اليوم التالي.

يتوسط الإمام غرفة صغيرة عرضها ستة أمتار وطولها كعرضها تقريباً، تُتَّخذ جامعاً في أغلب أيام السنة، كانت عينا الإمام كعيني ذئب: يقرأ في المعلقات السبع، وكلما دخل عليه أحدٌ رفع الصوت قليلاً بشعر طرفة بن العبد أو عمرو بن كلثوم.

لم يحتج زهار على هذه القراءة.

كان زهار، على الرغم من أنه أسلم الروح، يسمع الشعر، وإذا فتْنة هذا الكلام قد دفعته للكلام:

- اسمح لي أن أقطع عليك قراءتك.. إني أعرف أن ابن بطوطة قد انتهى من تدوين حكايتي في مجلده، لذا عليك أن تخبر الجميع ليتهيأوا لجنازتي، فقد سئمت الانتظار، وظهري يؤلمني من هذا الحمل.. وأعرف أنني حملٌ ثقيل عليك.

قام الإمام فرفع الغطاء عن زهار، وحدق جيداً في العنق المقطوع من الرقبة، ثم عاد وأدخل رأسه في كتاب «الروض العاطر في نزهة الخاطر».. كان يقرأ ويضحك.. يضحك ويقرأ.. لم يكن يقرأ بصوت مرتفع كما تمنى ذلك زهار. فالكتاب غير قابل للقراءة جهراً وفي مكان مقدس كهذا.

هذا الكتاب، حكايته أيضاً مسجلة في مجلد ابن بطوطة، لقد أحضره رجل «ورع» عالم حساسٌ كثير البكاء سخي الدمع، جاء من تونس ليحفّظ القرآن لأبنائنا. ابن بطوطة هو الذي أغواه بالمجيء، قضى بيننا تسعين يوماً ثم رحل عائداً ذات صباح بعد أن سمع هاتفاً

يدعوه إلى جوار سيدي بوسعيد. هذا الصوت الذي ناداه -والكلام على ذمة نصّ ابن بطوطة- هو صوت امرأة كان يحبها ولأجلها خدم منظّف مراحيض جامع الزيتونة سبع عشرة سنة.. كانت نافذة بيتها تطل من الشارع الضيق القبلي على مراحيض الجامع.. وظل معلقاً في هذه النافذة حتى اقتحم البيت وعاشا معاً سنوات عسلية لولا أن خدعه الأصدقاء فوشوا به إلى إدارة الجامع فطردته من عمله ومن يومها أغلقت المرأة نافذتها.

كان التونسي يقول لا أجمل من قراءة الشعر العربي وتدخين الحشيش البربري، هذه الثنائية هي التي صنعت عبقرية ابن خلدون والحبيب بورقيبة..

زهار غارق في موته. غارق في سر اغتياله.

وإذ دخل ابن بطوطة على الإمام، شعر هذا الأخير براحة عميقة، إذ أن قضية دفن زهار وجدت من تُعلّق في رقبته.

ذاك المساء الذي سبق تلك الليلة التي لا تتكرر، كانت القهوة رائعة في مذاقها المحمص المرمّد. لم أشرب قهوة كتلك. «حمامة» لم تشرب.. حين أكون حائراً أو حزيناً لحزن امرئ ثان أتشهى احتساء القهوة.. أخبار الجنازات والاغتيالات والموت تثير فيّ رغبة جنونية لشرب القهوة التي أُفضّل أن أحضّرها بنفسي.

الناس لا تفهم هذا التصرف، فتعتقد أنه من عدم الاكتراث، وعدم التأثر لهذا الموت أو هذا الاغتيال أو ذاك.. خُذ مثلاً أختي «حمامة»، لم تستطع أن تفسر شهيتي للقهوة هذا المساء الذي اغتيل فيه صديقها أو زوجها أو.. زهار، على الرغم من أن أختي «حمامة» فتاة مثقفة بل وإن لها شهادات جامعية، هي ليست أختي من أمي ولا

من أبي لكنها أختي وكفى. قد تكون حكاية بعض الناس كافية لكي تجعلهم أخوة لك، وأنا وجدت ذلك في حكاية «زهار وحمامة» كما رواها ابن بطوطة.

الرمد يأكل عينيّ ابن أختي البكر. نبهته ألا يأكل الرمان. نقطت له أمي ثلاث قطرات زيت الزيتون في عينيه.

سآخذه الليلة ليبيت في الغرفة التي أتقاسمها و«حمامة».. لست أدري من أين جاء الشيطان فحط في رأسي. حين أكون حزينة أفكر في الجنس. رغبة الجنس كرغبة القهوة. ولأن «زهار» اغتيل و«حمامة» حزينة فإني أفكر في ارتكاب شيء مع ابن أختي. ما كان علي أن أفكر في هذا الأمر مطلقاً لولا أن أختي «يامنة» - الله يرحمها- نبهتني إلى ذلك.

سأتركه في الغرفة وأصعد إلى السطح أسمع حكاية زهار. وإذا ما كنت حزينة حدّ الرغبة الجنسية فسأجد ابن أختي البكر في فراشي، إنّ رمد عينيه لن يترك له فرصة مشاهدة عمته تفعل معه هذا الذي يجب أن أفعله حين أشعر بقساوة في داخلي أو بهزيمة.

لم أكن أتوقع أن ابن بطوطة هكذا في الليل، كنت أتخيله كالطير أو الحصان، ربما هذه القامة هي التي جنّنت أختي، لم ينتبه إلى وجودي. كان يكتب في مجلده بخط مغربي مُزوّقاً الأطراف، غارقاً في تشكيل أحجام الحواشي في هندسة عجيبة. كان يكتب ما يدلقه لسانه بصوت مرتفع قليلاً.

كان الدوتشي في قمة بهجته. رفع ابن بطوطة عينه اليمنى إليّ، اليسرى ظلت تحرس هندسة الحواشي، كان هادئاً، ثم رفع العين اليسرى إليّ إذ لمس فرحة الدوتشي بي، ربما اعتقد أنني «يامنة»،

فالدوتشي مصاب بالرمد أو بصفار العين، لأول مرة أدرك أن العينين ليستا للنظر، إنهما للقتل. بهاتين العينين: اليمنى واليسرى، بإمكان ابن بطوطة أن يقتلني ثم ينزل بهدوء ليمدد جثتي إلى جانب جثة زهار. ربما وجود أمي عند أسفل السلم هو الذي جعله ويسرعة يتنازل عن عينيه القاتلتين ليلبس زوجاً آخر، تشبهان عيني ابن أختي البكر الذي تركته في فراشي وتركت الشيطان عليه حارساً أميناً. لأول مرة أيضاً أدرك الشبه العميق بينهما.

سبحان الله.

لفّ الميزان الذي وزن به الكلب في كيس بلاستيكي أخضر ثم أعاده إلى الحقيبة التي تشبه حقيبة «حمامة»، وقال:

- لقد زاد وزنه مائتين وثلاثة وعشرين غراماً..

سكت. خفتُ أن يكون قد جُنّ بعد أن ضيّع عقله في هندسة الحواشي وترتيل قصص الناس والجغرافيا وتجارة الأقلام القصبية وتحضير ألوان الحبر والمواد الكيماوية العجيبة.

- زيادة وزن الدوتشي، نذير شؤم.. سيصيبُ القرية طوفان وموتٌ كثير.

الكلابُ تسمَن.. يزيد وزنها!!

حمحمت أمي في باحة الحوش، وكأنما تعوذت من هذا الكلام، الذي تمنيت ألا يدونه ابن بطوطة في مجلده الذي يحمل عنوان «الأحزاب والأوبئة والكلاب السمينة».. حين حمحمت أمي، شعرت بوجودها أكثر، وشعرت أيضاً بأنها أمي وليست زوجة «الحاج ميمون كواكي» مربيتنا نحن الثلاثة: أنا يمامة والمرحومة يامنة وحمامة

عاشقة زهار.. أدرك الآن كم هي كبيرة قيمة الأم، إنها كالحائط الذي يسند السلم ويشد القدمين الصاعدتين عليه بإحكام.

لماذا أفكر في «لوفا» الأكرانية. إنها هي التي قتلت أختي، لا يمكن أن تكون إلا قاتلة، كنت أريد أن أسأله عن «لوفا» التي ما هي إلا تحوير لكلمة «LOUVE» في الفرنسية والتي تعني الذئبة. تراجعتُ عن سؤالي أمام الحيرة التي بدت على وجهه لازدياد وزن الكلب.

في كل مرة يسافر فيها ابن بطوطة، كانت أمي تذيع في القرية، أنه سيعود هذه المرة صحبة الأكرانية. وأنه سيبني لها غرفة فوق السطوح، وستكون الغرفة الوحيدة في الطابق الأول، بعد أن تعاهد الجميع حسب قانون حمورابي أن لا أحد يرفع سطح بيته أعلى من سطح التدوين والأحواض.

لقد أقنعتْ أمي الجميع بخبر مجيء الأكرانية، النساء على وجه الخصوص، الرجال هم الآخرون انشغلوا لهذا الحدث، إذ أنهم يفكرون جميعاً في إحضار أكرانيات إذا ما كانت «لوفا» جميلة كما يقول مجلد ابن بطوطة. لكنهم تراجعوا عن هذه الفكرة لأنها ستكون سبباً في موت اللغة العربية، وأن الأطفال لن يتكلموا سوى الأكرانية.

كان قصد أمي من إشاعة خبر الأكرانية، هو إبعاد النساء عن ابن بطوطة، الذي قالت عنه إنه يتحدث الأكرانية في الليل، وأن كثيراً من صفحات مجلّده مكتوبة بالأكرانية.. كانت تنسج كل هذه القصص كي تترك لي فرصة التفرس في صعود السلم.

ربما كانت تريده لنفسها.

أنا لا تخيفني «لوفا» قدر ما تخيفني «حمامة».. إنها لم تكن

أبداً تحب زهـار.. إنها تحـب ابن بطوطة، وهـي قـادرة أن تنزلـه إليها بدلاً مـن أن تصعـد إليـه هـي. فـي كـل الحـالات سـيظل السـلم إمـا لصعودي أو لهبوط ابن بطوطة.

حمامة فتاة ذكية، كأنما تعلمت منطق الطير من فريـد العطـار، كما كان يقول عنها الطشقندي، ضاحكاً حتى تظهر ضرسه المسوسة:

- هـذه حفيـدة فريـد العطـار وسـيدنا سـليمان الـذي عـرف كـل لغات الطير.

الحقيقة أنني لم أكن أعرف من هو هذا «الفريد العطار»، كنت أعتقد أنه نبي من أنبياء الله، إلاّ أن حمامة هي التـي كشـفت لـي عنـه فيما بعد قائلة:

- كاتب مجنون، كتب كتاباً أحبَّه مجانين وصعاليك بغداد اسمه «منطق الطير».. على ألسنة الطير.

باب الغواية والنكاية أيضاً

أنا ابن بطوطة كتبت في تاريخه: يوم الفتنة الثانية في هذا المجلد ما رأيت وعشت وشهدت بالحق إلى يوم الدين:

دخلت بلداً يعوم في الماء اسمه «مالطا».. لم أجد فيه سوى القليل من أهله، أما ما بقي فهم من فلسطين والسودان والهاربون من بلدانهم، بلدٌ يبحث عن أبنائه فيه، جزيرة موحشة، تقتلها ريحٌ وغبارٌ، كأنما هي بين يدي عفريت أو ساحر ماكر. تذكرت عمر المختار الذي أثر في أنطوني كوين حتى كاد أن يعلن إسلامه ويقرر ألا يشرب سوى البيرة دون كحول.. كان طموح عمر المختار وهو يحارب الطليان أن يبني قصراً ومسجداً كبيرين على هذه الجزيرة، يقال إنه استشار مجموعة من المنجمين والمهندسين وحفظة القرآن في إمكانية مدّ جسر على الماء ما بين المملكة الليبية ومالطا، وأن الجميع اعتبر ذلك كفراً وتطاولاً على ما صنع الله ووزّع من ماء ويابس. فعدل عن الأمر خوفاً من أن يتفرق عنه جنده.

نزلت من الباخرة التي أقلتني من «بنزرت» بتونس، فضاقت بي الجزيرة على وسعها إذ شعرت بالماء يهاجمني من كل جهة، وكأني أطلب النجدة من ضوء على باخرة عابرة هذا المتوسط. جرتني قدماي

إلى فندق اسمه «النجمة» أثارني اسمه. وإذ تجاوزت العتبة شد انتباهي رجلٌ يجلس إلى امرأة في ركن من البار الذي يوجد على يسار مكتب الاستقبال. شعرت برطوبة غريبة تأكلني، فتثير الحكَّ في ظهري وركبتي، رطوبة مالحة ثقيلة. تمنيت أن أغادر هذه «المالطة» فوراً.

اليوم يوم أحد، رطوبة وفراغ مقرف، يوم للمقابر والكنائس.

الرجل الذي أثارني، شواربه توحي أنه درزي أو شركسي أو كردي أو طلياني. في وجهه شيء يشد نظر من يمر بجواره، وربما هذا الذي يشد الانتباه راجع إلى المرأة الفاتنة التي تقابله تشرب قهوتها بسهو وشعر وحيرة، دون أن ترفع عينيها وكأنما تعرف المكان جيداً.

صعدت إلى الغرفة في الطابق الرابع، إنها ليست سوى الغرفة قدري، غرفة 410، المصعد معطل، ورقة صغيرة معلقة تعلن للزبائن ذلك الأمر. وبما أن اليوم هو يوم أحد فإن تصليح المصعد لن يكون إلا يوم الاثنين، تمنيته أن يكون معطلاً، أخاف الغرف الرطبة. هذا الشهر هو أكثر الشهور رطوبة في السنة. كنت أتوقع وأنا أتسلق السلالم وأعد درجاته واحدة واحدة أن تكون الغرفة كما أعرفها: سرير بخشب عتيق، ربما من العهد العثماني أو عهد المماليك، عليها أغطية صوفية شبيهة بأغطية العساكر بلون رمادي داكن يثير الاختناق، تحت الأغطية شراشف بيضاء نظيفة، على الرغم من أن بياضها ليس أبيض جافيلي، بياضٌ صفاري، تذكر بشراشف أقسام التوليد والجراحة في المستشفيات العمومية.. على الحائط المواجه للسرير إطار بصورة باردة لامرأة باردة تقبض طرف لباسها الطويل بفمها، لباس يعود لعهد لويس السادس عشر.. المرأة تضحك لكن ضحكتها

مليئة بالبكاء. الحنفية تقطر فتحدث صوتاً مزعجاً، طرّاد ماء المرحاض هو الآخر يصدر صوتاً غريباً.. أعتقد أن الصوت في رأسي وليس في الطراد.. الصابون الموضوع على قطعة البورسلين الأبيض، فيه رائحة الشحم، على الرغم من أن نوعيته ممتازة.. جعجعة مفاصل أبواب الغرف تُصدِر ضجيجاً مثيراً للقيء.. أصوات الطالعين والطالعات والنازلات والنازلين.. صوت شرشرة بولة رجل أو امرأة في الغرفة المحاذية لغرفتي.

رميت الحقيبة على السرير، الذي بدا لي الآن على غير ما توهمت، سرير رائع لا ينقصه سوى امرأة، توقعت أن تخرج كالجنية من تحت الشراشف الوردية والتي كانت قبل قليل بيضاء صفراوية، لم أنتظر مفاجأة المرأة فسحبت الغطاء.. لا شيء.. رميت نظرة في المرآة لأرى وجهي، فيذكرني بأبي الذي تحكي عنه أمي الحكاية التالية كلما ذكرته داعية له بالرحمة والشفاعة، والغفران: لقد مات أبوك في حجري، وهو يمصمص حبة زيتون، لقد سحبت من فمه علفة (نواة) الزيتونة بعد أن أسلم الروح مبتسماً. لم يكن خائفاً من الموت، كما يخافه جميع الخلق، لقد ظل يؤكد لأمي رجولته وشجاعته وشبقيته حتى آخر لحظة.

لم أكن أعتقد أن هناك ما هو مشترك بيني وبين أبي، كنت أعتقد أني أشبه أمي.

غسلتُ يديّ بسرعة، رغوة الصابون ناعمة وشبقة كحكاية أمي عن أبي، الواقع أن أمي لم تكن تريد إبراز تأثرها لموت أبي، إنما كانت تريد أن تؤكد أنه مات في حجرها، وأن كل ما قيل عنه وعن علاقاته بالنساء كذب وغيرة. انزلقتُ إلى الرواق، ثم سلّمتُ قدميّ للسلم بعد

أن قرأتُ مرة أخرى الورقة التي تعلن عن عطل بالمصعد مع جملة مهذبة بلاغتها زائدة تعتذر فيها الإدارة لزبائنها الكرام.

دخلت البار. والرجل الذي تركته في ركنه لا يزال يقابل المرأة، يتحدث إليها وكأنما تعارفا لتوهما.

البار مليء، يوم الأحد تمتلئ بارات الفنادق. غالبية الجالسين من الفلسطينيين واللبنانيين والأفارقة السود والطليان وبعض الأمريكيين يشربون البيرة المالطية ويأكلون «المازة»: سردين مشوي برؤوسه أو صحون فاصولياء بيضاء في مرق أحمر؛ هذه الأخيرة تؤكل مع نبيذ محليّ يقدم في قنينات من لوح على شكل حوريات يونانية.

اتخذتُ لي مكاناً في ركن قريب من الرجل والسيدة التي تقابله. الآن أنتبه، فأكتشف أن عدد النساء في البار يزيد عن عدد الرجال.

لم أطلب شيئاً، إلاّ أن بيرة نزلتْ فوق الطاولة.. لم أسأل عن سرّ نزولها، شربتُ نصفها دفعة واحدة، بعد أن انتبهتُ إلى أن غالبية الرواد يشربون البيرة من القنينة مباشرة، مع العلم أن الكؤوس تملأ الطاولات، إلاّ أنها لا تستعمل.

يقابلني الرجل الذي بدا مشوشاً، باحثاً عن أنيس وكأن المرأة التي تجالسه فارغة منه، لم أستطع قراءة ملامح المرأة لأنها كانت تعطيني ظهرها.

- من هي المرأة؟

الواقع أنها لم تكن تشبه «لوفا».

- عدنا للحديث عن الأكرانية التي أكلت قلبه.

علاقتي مع الأكرانية كانت عابرة. «يامنـــة» هـي التـي كـبّرتْ الحكاية.

- أعرف انه لم يكن يقصـد أختـي، إنمـا كان يعنـي أمـي التـي اذاعت في الأنحاء قصصاً غريبة عن «لوفا»، حتى أن ابن بطوطة صـدّق حكايات أمي عن عشيقته وأخذ ينتظر عودتها، وأنه سـجّل الكثير من حكاياتها في مدونته، إذ اختلط عليه ما كانت تروجه أمي وما عاشه هو.

تعلمتُ من الأكرانية كلمة واحدة هي «زافطرا» ومعناها بلغتنا «غداً».. لكني كنت أفهمها أكثر من أي أحدٍ يتحدث هذه اللغة التي نتخاطب بها أيضاً يتحدثها. إنها اللغة الوطنيةُ في الجنة وفي الجحيم أيضاً.

حين تواعدنا قلت للأكرانية، إن كنتِ حاملاً مني، فسمّي المولود إذا كان طفلة: «مسكية»، وإذا كان ذكراً فهذا لا يهمني كثيراً: إيفان أو محمد أو يورمي أو غاريك..

أخرجت «لوفا» ورقة ثم سجلت عليها اسم «مسكية». ثم رحلت، وحين رحلت تذكرت أننا لم نمارس الجنس، فكيف تكون حاملاً.. ضحكت من غبائي ثم قلت: إنها دون شك تعتقد أننا نحن الأفارقة نخصب زوجاتنا بالحديث والحكايات والروائح لا بالأعضاء التي خلقها الله لذلك.

كان يتحدث ويكتب، وكلما كان الحديث عن «لوفا» يزداد خطه جمالاً، وتتوازى وتتناسق حروفه أكثر. فيختلط عليه النثر بالشعر بالموسيقى وبآيات الذكر الحكيم.

- أنتِ مريضة، صدرك يخشخش.. عليك أن تعودي إلى فراشك فبرد أكتوبر صعبٌ وغدارٌ.

انزعجت لملاحظته، وكأنما يريد أن يتخلص مني.. كي يتفرغ لمجلده وصفحاته الخاصة بـ «لوفا».

أردت أن أوضح له بأنني لست «يامنة» التي ماتت من المرض، ومثلي كنت أدرك أن أمي كانت تتمنى ان أشرح له جيداً بأنني لست أختي التي ماتت والتي سار في جنازتها، وحزن عليها حتى الدوتشي الذي كلما أخذ ابن بطوطة يسجل حكاياته عن النساء يرخي أذنيه ويغرق في حلم طويل مع كلبة أكرانية.

لقد فكر الدوتشي مراتٍ في الانتحار، حين ضاق به المكان على هذا السطح، لكنه في الأخير اختار أن يكتفي برائحة أختي والجلوس في حجرها حين يغيب ابن بطوطة، بدلاً من أن يجري خلف وهم كلبة تكون صفحة أو صفحتين في مدونة ابن بطوطة.

لم تكن أختي تفرّق بين حب الدوتشي وحب ابن بطوطة، وأن ما تمارسه مع الكلب أكثر صدقاً وعمقاً مما تمارسه مع ابن بطوطة.

كيف يمكن لي أن آكل قلب ابن بطوطة وقلب كلبه؟

لقد فكرت طويلاً وأنا أحتضن ابن أختي البكر الذي استجاب لي وكأنما هو الآخر كان ينتظر نزولي من السطح. كان جسده يقظاً.. فكرت في الطريقة التي أسرق بها قلب ابن بطوطة: عليّ أن أتقمص شخصية «يامنة»، أن أدفن «يمامة» وأعود في جلدها.

في اليوم التالي بدأت أتمرن على تقليد صوت أختي. كنت أحضِر ابنها الأصغر فأناديه من خلف الباب: يا عبد المجيد.. فألاحظ مدى انتباهه وقلقه ايضاً.. وعلى مدى اسبوع كامل فشلت

في إثارته أو إيقاظ ذاكرته على أمه. في حين كان الابن البكر يضحك مني ويلعب بفراشي وبعينيه الدامعتين. لقد قررت ألا انهزم، ألاّ أتراجع، «حمامة» كانت تتعجب لتصرفاتي، وكنت أعتقد أنها كانت تسجل كل ذلك على دفتر صغير.

عليّ ألاّ ألبس سوى ملابسها، وألاّ أنام إلاّ في فراشها، وألاّ احتذي إلا حذاءها على الرغم من أنه أوسع من قدميّ، أن أقلّد مشيتها وطريقة كلامها وضحكتها الحزينة العميقة، وألاّ آكل إلا ما كانت تأكل، وألاّ أشرب إلاّ ما كانت تشرب.. كنت أستعيد صور الناس الذين كانت تحبهم من الجيران، ومن تكرههم، الواقع أن أختي لم تكن تكره أحداً.. حتى الأكرانية لم تكرهها، إنما هي غيرة امرأة، كان ابن بطوطة يوقدها كي يكتب مدونته.

في الأخير ادركت أنه عليّ أن أذهب إليها في قبرها. فكنت أزورها مرتين في اليوم: صباحاً قبل أن أشرب القهوة، ومساءً مع سقوط الشمس.

كنتُ أعتقد أنني كسرت الفنجان الذي عليه صور الحيوانات والفواكه والمرأة، لكني وجدته هذا الصباح فوق المنضدة التي وضعت عليها أدوات زينة أختي والتي بدأت أستعملها.

فرحت بالفنجان لأنه ملك أختي، أهداه لها الطشقندي. وحين شربت فيه القهوة، دق بابنا الطشقندي الذي قيل إن النهر الفائض جرفه وبغلته، جاء، طلب يدي، فرفضَتْ أمي دون أن تستشيرني، أما هو فقال أنه أراد أن يشم رائحة استوحشها، لم يكن يعرف هل طلب يدي أم يد أختي التي ماتت، وإن أمي هي نفسها لم تفهم كثيراً من المطلوبة.

لقد نامت أمي ليلتها على قبر أختي، كانت تقول لنا: إن هذا الطشقندي سوف يفتح قبر أختكم ويسرق جثتها ويتزوجها وربما يعيد لها الحياة. وأنا لا أريدها أن تعود إلى هذه الدنيا فتفتح حرباً ضد أختها على مكان في السطح أو في مدونة رجل مجنون بالجغرافية والخرافات.

الواقع أن أمي كانت تخاف من أن أقوم بنبش قبر أختي وآكلها.. وقد فكرت في ذلك فعلاً.. أما حكاية الطشقندي فهي من اختلاق أمي.

كلما شعرتُ بعيني ابن بطوطة تهرب مني أو تتحاشاني، كان عليّ أن أبحث عن أختي فيّ أكثر، أن أتعطر بعطرها أكثر، أن أتكحل بكحلها الذي كانت تخفي به صفار عينيها، أن أمرّن حنجرتي على صوتها وصمتها. وابن بطوطة غارق في مجلّده وتزويقاته هائماً في معجز حروفه ومتاهة أشكالها.

هذه الليلة علي أن أستعيد أختي كاملة: لن يكون ذلك إلا بالنوم عند شاهدة قبرها. كنت أخادع أمي إذ أصعد السطح لأنزل من الجهة الأخرى، وبدل أن أقضي الليل على السطح أقضيه في المقبرة. كنت على قبرها أستطيع وبتفوق استعادة حنجرتها وشكلها ولون عينيها ورائحتها. كنت أراها تنظر إليّ من حفرتها دون أن تتكلم، وعلى الرغم من الغيرة البادية في عينيها، كانت معجبة بي وبذكائي، الذي كانت متأكدة أنه سيخدع في النهاية الدونشي وابن بطوطة.

قضيتُ سبع ليالٍ على قبرها، وتوقفتُ عن ذلك حين اختلقتْ أمي حكاية الطشقندي، لأنها اكتشفتْ جنوني الذي يشرف على أكل جثة أختي، أو جثة ابنها البكر الذي كان مستعداً أن يكون طعاماً لي.

مع الليلة الثامنة صعدت كعادتي إلى السطح، وإذا الدوتشي يستقبلني بعنف وحنان دافق، كانت عيناه بفيضهما كعيني عاشق، كان يحمحم ويبكي واضعاً رأسه على حجري.. عرفتُ لحظتها أنني تركتُ نفسي عند شاهدة القبر.. قبر «يامنة»، وعدتُ بها فيّ.

لماذا يبكي الدوتشي، هل ضيّع شيئاً عزيزاً أم استرجع شيئاً أعز. أدرك أنه يبكي لأنني استطعتُ أن أُفقده حاسة شمه، استطعتُ أن أخدعها، وتلك أعظم ما لديه.

أمي تعذّبني.. كانت فرحة لأنني استطعتُ أن أخدع حاسة الكلب، وهو ما يؤكد أنني سأخدع أيضاً قلب ابن بطوطة.

لقد بدأتْ انتصاراتي. لكن أمي تعذبني وتغارُ مني على هذه الانتصارات، إنها معلقة في دمي، سابحة فيه، منتبهة لكل هسيس في أنوثتي، تفتش رائحة ثيابي، وتتفحص جيداً لون دم عادتي الشهرية، وتشم جسد ابن أختي البكر الذي ينامُ ملتصقاً بيّ.

أمي تريدني أن أكون مشهية أو متشهية، لكنها تريد أن تكون حاضرة في كل مشهد.

تريدني أن أكون مهيّجة وهائجة، مفترسة وفريسة. هي هكذا أمي. على الرغم من أنني أتضايق من وجودها الموجود في كل مكان وفي كل فضاء. ظل لظلي، إلا أنني أفكر مرات في مدى وحدَتي وظُلمتي إذا ما فقدتها.

أيام تموت وأنا أتعذب من فكرة موتٍ يصيبُ أمي فيخطفها، فندفنها كسائر الناس في تلك المقبرة.. كسائر الناس تحت التراب.. يا لِحظٍّ أختي ستجدها إلى جوارها.. يامنة محظوظة أكثر مني.. أتعذب لوجود أمي وأكثر من ذلك أتعذب لفكرة فقدانها.. عليّ أن أترك

البيت، أن أهجره قبل أن ترحل عنه أمي.. لست أدري لماذا أفكر في موتها وهي لا تزال في كامل صحتها تحب الأكل الجيد وتحب اللباس الأنيق وتحب الحفل وتحب شرب الشاي في كؤوس مذّهبة.. تحب صلاتها التي لا تتركها.. وهي تصوم كل أيام شهر رمضان.. تصوم حتى ولو خدعتها أنوثتها.. المهم -كما تقول- ألاّ نأكل شيئاً.. نحن الثلاثة لا نشبهها.

ظلام هذه الليلة لا يبدو أسود.. إنه مائل إلى الزرقة أو اللون البنفسجي المغطس في اللون المدادي.. هكذا يظهر الليل لي وأنا ألامس شعر الدوتشي الذي استأنسَ بي وبرائحتي ودفء حجري، وأراقب حركات ابن بطوطة في صراعه مع أشكال الحروف ومبراة الأقلام وحبره الذي ازداد هو الآخر بهجة في اللون تحت هذا الليل الغريب.

خفت أن تكون عيناي قد أصابهما ما كنت أخافه.. إنها بداية الصفرة التي تحوّل الألوان جميعها إلى الأزرق المدادي.

تناول «برّاد» الشاي من أمي، دون أن ترفع صوتها، ودون حتى أن يغادر مكانه أو يغلق مجلده، تلك -دون شك- عادة من أيام أختي.

تلك عبقرية أمي. حاستها أقوى من حاسة الدوتشي.. تقول دون أن تضحك، إنها تشم رائحة ابن بطوطة على بعد ليلة بقطار متوسط السرعة، وعلى بعد ستة أيام بلياليها مشياً على بغل رباعي.

أفرغ الشاي في كأسين.. واحدة لي وواحدة له.. ففاحت رائحة النعناع في الأنحاء. ففتح الدوتشي عينيه وحاول أن يحرك أذنيه اللتين تشبهان ورقتي خس ذابلتين.

عاد له لسانه. فأشعر حين يحكي أن الحديث موجه لأمي، التي

حقدت عليه الآن. واعتقد أنها كانت تشجعني نحو السطح لا لكي آكل قلب ابن بطوطة مشوياً على نار خفيفة كما كانت تعبِّر، بل لأنها كانت تريد أن تحتفظ به كالهدهد في ذلك القفص السطحي.

أمي امرأة قادرة على أن تقتلني كما قتلت أختي لأجل هُدهُدِها.. ابن بطوطة.. قادرة على أن تحرق العالم لأجله.

على الرغم أنها تريد أن توهمنا بأن كل هذا الذي تقوم به هو لأجلنا.. لأجل أختي ثم لأجلي.. كذب.. كذب.. كذب

كان عليّ أن أكون صادقاً مع الموت -يا يامنة-

- أنا لست يامنة.. أنا يمامة.

إني أحمل زهار حكاية مؤلمة في قلبي. أعرف أن اغتياله بداية الفتنة الثانية.. وأن دماً كثيراً ستغرق البلاد فيه.. ازديادُ وزن الدوتشي نذير شؤم هكذا علمتني الكتب وعلمتني حكمة الجغرافيا..

فرغ بار الفندق من العباد.. بقيت وحدي مسمراً على هذا الكرسي، يقابلني ذلك الوجه الذي لم يظهر عليه تعب.. المرأة التي تقابله والتي لم أكتشف بعد وجهها هادئة أكثر منه.

كيف تبادلنا الحديث؟

«انفجار بدار الصحافة الطاهر جاووت، بالجزائر العاصمة يخلّف ثلاثين ضحية».

قال زهار:

- الحرب لعنة والفتنة لعنتان.

- الآن أرى وجه المرأة التي ترافقه، وقد شعرت أنهما تعارفا حديثاً، إذ أنهما لم يسكتا طوال جلستهما، وكأن الواحد كان يفرغ للثاني كيس حياته الذي ملأه في مدن كثيرة وأعوام كثر.

قال زهار:

اسمي زهار، ونظر إلى المرأة التي تقابله وكأنما ليتحقق جيداً من اسمه. هجّرتني الحرب من بلادي في سنة 1959، حيث كان عليّ

أن أترك تلمسان التي أحببتها وفيها ولدت وغرست شجرات الكرز على مشارف «المنصورة»، كان علي أن أخرج بعد أن أصدر «الأخوة» فتوى بقتلي لأنني شيوعي ومنظم في جيش الأنصار التابع للحزب ضدّ المستعمر الفرنسي، وأنني وراء حملة التعاطف الدولية مع الطاهر الغمري.

كان عليّ أن أرحل، الرفاق دبروا خروجي عبر الحدود التونسية. خرجت مخلفاً تلمسان مصلوبة هناك ما بين جبل بودغن وسهل الحنّاية. تركتُ مقبرتنا والشوارع التي فيها بعثرتُ طفولتي وشبابي، هناك أيضاً تركت أمي «لالة حدو بنت عمران المليح»، تركتها للجيران من المسلمين والإسبان والطليان الذين أحببناهم وكانوا منا وكنا منهم، لم أستطع أن أقنعها بالرحيل.. كنت ألح عليها كي ترافقني، وأتمنى في الوقت نفسه ألا تقنع بكلامي، وأن تظل على موقفها بالبقاء. كانت تبكي وتقول:

- اذهب أنت أما أنا فسأموت في هواء البلاد، شعرت بالخيانة العظمى، إلاّ أن الرفاق لم يتركوا لي فرصة مناقشة قرار إخراجي، بعد أن ثبت لديهم أن «الأخوة» يريدون رأسي وأنهم جنّدوا لذلك مجموعات من جندهم.

يشرب من كأسه، ينظر إلى «حمامة»، لا يريد أن يغمض عينيه عن وجهها.

الحرب قتلتنا، شردتنا، وقتلت الحرفة في يدنا وأيبست الليرة فما عادت تبيض ذهباً. الحرب عدوة التجارة وعدوة الموسيقى.

الحرب كتاب الكراهية.

في منفاي الجديد، حاصرتني حالة من العزلة والانكماش والكآبة. لم تتحرك التجارة وما عاد سوق «الحميدية» يطلب كثيراً من صياغتنا ولا من صناعة أعوادنا ولا من نسيجنا وكتّاننا ولا من خيوطنا ولا من حريرنا وصوفنا. تقلّص العالم كثيراً حتى جف. واندلعت حرب 67 التي قضتْ على علاقتي بحلبية رائعة، كنت أعشقها، لأجلها كتبتُ الشعر عن كرز تلمسان وعن «باب وهران» وعن أمي. وعن الرفاق، لأجلها وربما لأجل تلمسان حفظتُ كل أغاني صباح فخري الذي أعتقد أن أصله من تلمسان أيضاً -ربما هذا سيثير غضب الحلبيين- الحلبية هي التي دفعتني لقراءة ألف ليلة وليلة، بعد أن كنت لا أقرأ سوى كتب في الاقتصاد والاقتصاد السياسي ومذكرات بعض الشخصيات وكتب عن الحرب والصراع الطبقي، لأجلها وربما لأمي ولعبد الكريم دالي وبن سوسان ومحمد غفور ورضوان والعربي بن ساري تعلمتُ الموسيقى الأندلسية، فكنت أشتغل في النهار في معمل صغير لصياغة الذهب، وفي الليل أكتب الشعر ومذكراتي وأرسم وجوه الأصدقاء وشجر الكرز وأعزف على العود حتى طلوع الفجر، ولإصبعها المبروم كالشمع الحر صنعتُ خاتماً بيدي قضيتُ في صناعته ستة شهور.. وحين جاءتْ الحرب حالتْ دون ذهابي إليها في حلب.. حُرمتُ من إصبعها كي أغرقه في هذا الخاتم الرائع.. فاحتفظتُ به.

- كنت أريد أن أسأله عن الخاتم، أن أستفسر أكثر، لكنني تراجعت أمام شهوة الحروف التي يكتبها ويزوقها والكلام الذي يصففه في فمه.

الحلبية انتظرتْ مجيء زهار.. انتظرَته الليل وانتظرَته النهار.. انتظرته الليالي وانتظرته النهارات.. ولم يجئْ زهار..

قلت لك إن الحرب لعنة والفتنة لعنتان.

سمعتْ كل أغاني صباح فخري وعزف عبد الكريم دالي وبن سوسان وأعادتْ قراءة ألف ليلة وليلة، وأعادتْ للمرة الثالثة قراءة كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.. وحفظتْ ديوان أبي فراس الحمداني.. وكان لها وقت كثير كي تبكي كثيراً للفراق والغياب.. وفي الختام حين قرأتْ كتاب «طوق الحمامة».. لابن حزم أسلمت الروح مع آخر صفحة في الكتاب، ورحلت إلى قبرها بإصبع مبروم دون خاتم قضيت في صناعته مائة وثمانين يوماً.

تمنى زهار أن يقرأ «طوق الحمامة» كي يكتشف الموت بين دفتي كتاب، لكنه أجّل ذلك قليلاً كي ينهي حلمه ورسم بقية وجوه الرفاق في «مَغْنية» و«تلمسان» و«ندرومة».

وحين طال به البحر حتى ضاق، بحر يركبه في اتجاه الغرب حيث رائحة الكرز ونغمة الأخوين بن ساري وصوت رينات الوهرانية، لفّ كتاب «طوق الحمامة» تحت إبطه وصعد إلى سطح الباخرة.. مطر يسقط.. ماءٌ يسقط فوق ماء. ماء السماء ينزل على ماء البحر.. بين مائين: ماء البحر المالح وماء المطر الحلو، يتحسس زهار ماء العينين المرّ.

اتخذ زهار ركناً مغطى على سطح الباخرة.. ثم أخذ يقرأ في «طوق الحمامة» عن جحيم النساء ونار العشق وجنة الغيرة. وقبل أن ينهي الكتاب رمى بالخاتم في البحر.

- أنتَ وحدك حافظ السرّ إلى يوم تسيل الأنهارُ خمراً وعسلاً ويمتلئ الهواء موسيقى.

الخاتم ينزل إلى قرار البحر، ومن قلبه تخرج امرأة، لا أدري.

هل خرجت من حكايات ابن حزم أم من ماء البحر الذي فقد زرقته نحو دكنة قريبة من السواد. لم تكن المرأة تشبه الحلبية. كانت تتألم وتغني.. فيها بعض ملامح أمي التي قالت لي إن جدها الأول الذي جاء هارباً من محاكم التفتيش بالأندلس هو الذي جلب زراعة الكرز إلى تلمسان.. شعرتُ ببرودة وبراحة إذ تخلصتُ من الخاتم، ثم نزلتُ السلم إلى غرفتي في الباخرة. وعلى سريري وجدت امرأة ممددة في فراشي، تحلّق في السماء وتقرأ في كتاب «المنامات» لابن محرز الوهراني.. أردت أن أعتذر لها، كوني أخطأت في رقم الغرفة، فدَوخة البحر هي السبب في ذلك.. وهذه أول مرة أركب فيها البحر، إلا أنها التفتت إليّ وقد حطت الكتاب على صدرها بدفتين مفتوحتين كفراشة، وقد أدارت وجهها قليلاً في الضوء:

- هي غرفتك!!

قدرٌ آخر.. كل من يحب الكرز عليه أن يتحمل مثل هذا العذاب.

إنها ليست تماماً المرأة التي خرجت قبل قليل من البحر أو من حكاية «طوق الحمامة» إلا أنها تشبهها قليلاً.. ربما لا تشبهها إطلاقاً، فهذا مجرد وهَمّ ينتابني منذ قرأت فتوى «الأخوة» التي تحلل ذبحي.

لم يكن الكتاب الذي على صدرها، والذي عادت لتقرأ فيه، هو ما توقعته، لقد أخطأتُ، ربما أردتُ أن أقرأ ما أردته أن يكون.. لم يكن الكتاب الذي فيه غرقتُ سوى «طوق الحمامة».. تعجبتُ.. أعدت قراءة العنوان على الغلاف الذي بدا واضحاً الآن.. ونسيت المرأة.. انشغلتُ بالكتاب وتناسيتُ المرأة التي تحتل سريري، مستلذة اكتشاف

فضائح النساء والأمراء في كتاب قَتَلَ مؤلفه وقتل الحلبية وجنن الآلاف.

امرأة وحدها وحيدة على سريري.

أنا الآخر لم يكن في يدي سوى «طوق الحمامة» الذي ندمتُ الآن على أنني لم ألق به في البحر.. شعرتُ بالكتاب ثقيلاً في يدي التي عرقت وتخشبت، تمنيتُ أن أعود إلى سطح الباخرة، كي ألقي بالكتاب كما فعلت بالخاتم، أتخلص منه وأرتاح، آخذ حريتي كاملة.. على الأقل يمكن أن أسأل هذه المرأة، متجاهلاً، عن حكايات الكتاب، أن أطلب منها أن تحكي لي «فوائد» ما تقرأ، أما الآن وقد اكتشفتْ أنني أنا الآخر أملك نسخة من هذا الكتاب اللعين، فيتعذر عليها أن تحكي لي، ولو كانت بها رغبة، لأنها تدرك أنني رقيب أكثر من مستمع، الحكاية تسمع مرة واحدة، ثم تعيش العمر كله فينا، أو نعيش فيها، الأمران متداخلان، لا يمكننا أن نسمع الحكاية أكثر من مرة إلا إذا حافظنا على الطفولة كاملة فينا، بزغبها ونبوءتها، حينما كانت أمهاتنا وتحت إلحاحنا تعيد علينا قصّ حكاية من الحكايات التي سمعناها عشرات المرات، وكن يردن متعبات أن تختصرن، كنا نتتبع، نصحح ونرفض الحكاية.. الأطفال وحدهم يريدون أن يسمعوا الحكاية الواحدة مرات ومرات.. هل سأجرّب وأطلب منها أن تحكي لي قليلاً عن مخلوقات ما تقرأ. ترددتُ في مواجهتها، وقد شعرت بلساني كيد مهراس في فمي.. ترددت في الدخول في الموضوع وفي الغرية أيضاً.. ولم أستطع الانسحاب أو التحرر.. المرأة مائلة قليلاً على السرير الذي هو سريري دون شك.. تريد أن تفتنني بأصابعها.. أدرك الآن أن أجمل ما في المرأة الأصابع وأرنبة الأنف وموسيقى التنفس.. لم تتكلم.. لكنها قالت جملة واحدة وسكتتْ

أوتارها: «الهواء بارد هل يمكنك أن تغلق الباب..»، ثم عادت إلى هدوئها القاتل فتمددتْ جيداً على ظهرها لتغرق أكثر في كتابها. خطوة.. خطوة أخرى إلى الداخل كي أسمع للباب بالدوران في مفاصله لينغلق لوحده، حتى دون أن أدفعه.. حتى وجهها كان مظللاً أو مظلماً.. وباتتْ أرنبة أنفها جميلة أكثر.. كانت تقرأ فتبتسم تارة، وتارة أخرى تبدي بعض الانزعاج، أعرف أن هذه الملامح لا تكون منزعجة إلا لحكاية عاشقةٍ غرقت أو غارت أو غدرت أو غودرت أو عشيق هجَّ أو هاجر أو هام أو هلك.. تمنيتها أن تقرأ بصوت مرتفع.. كي أسمع الحكاية فتقصر المسافة وأنسى قلقلة الباخرة التي تواجه جواً مناخياً رديئاً.. شعرت بوجودي زائداً في هذه الغرفة مع العلم أنها غرفتي.. فحقيبتي في مكانها.. أنا متأكد أن المرأة لم تكن في السرير ولا في الوسادة.. كان السرير خاوياً.. فارغاً.. تمددتُ عليه بمجرد أن دخلتُ الغرفة، فلم ألمس فيه سوى رائحة الملح أو السبخة على الرغم من بياض لون الشراشف، بياض «مستشفوي» كَفَنّي.. لعنتُ «أبا هيثم» الذي هرّبني ودبّر لي جواز سفر يمني، وأوصلني حتى غرفتي هذه، بعد أن مررنا على طاقم الباخرة وسلمنا عليهم جميعاً.. كان أبو هيثم يكلمهم باليونانية.. عجباً يعرف اليونانية.. طريقة حديثه معهم تكشف عن صداقة قديمة.. لا كلفة في الكلام.. منحوه «كارطوشة» من سجائر «مارلبورو».. قبل أن يودعني وقد تفقد نظافة الغرفة وأغطية السرير، فتش جيوبي ونفض منها ما تبقى من الليرات قائلاً: أنت مسافر إلى بلد له عملته الخاصة.

إلى أي بلد سأذهب يا ربّ؟

ضاقت الدنيا

عليك اللعنة يا أبا هيثم!! انتبهتْ المرأة إلى وجودي الزائد، وجود لا وجود له، كنت أشعر أنها تتمتع لحيرتي.. ثم قالت دون أن تكلّف نفسها عناء التوقف عن القراءة:

- نتقاسم السرير ونتقاسم الحكاية.. أنا أبدأ الحكاية وأنت تنهينها حتى نصل إلى مرفأ مالطا.

لم أتأكد هل إنها كانت تقرأ.. أم أنها كانت تخاطبني.. خفت ألاّ أعرف كيف أحكي.. مع أنني كنت أكثر الذين يحكون في حيّ الأمين.. على كلّ علي أن أتجنب حكايات «ألف ليلة وليلة»، و«طوق الحمامة» فكلها حكايات مؤسسة على الغواية والرغبة وهذه امرأة في السرير.. نعم امرأة في السرير.. هل تعرف ما معنى امرأة في السرير؟! نارٌ في الهشيم!! يجبُ ألاّ أغرر بها، وقد دعتني إلى اقتسام مساحة السرير بعدل. تسللتُ كالحنش إلى السرير مكتفياً قدر الإمكان بأقصى الطرف كي لا أزعجها، وقد عادتْ للقراءة ونسيتُ اقتراحها القاضي «باقتسام الحكاية».. لكنني بمجرد أن تململتُ في مكاني معلناً لأول مرة منذ دخلتُ عن وجودي، حتى بدأتْ تحكي أو تقرأ من «طوق الحمامة» ذلك الكتاب الذي قتل الحلبية.. سأحاول أن أقص قراءتها حتى لا تنهي الكتاب فتموت.. لتوجد في الصباح جثة هامدة في سريري، وأنا المغادر أرضاً إلى أرض دون أرضٍ.

خفت أن أنام.. خفت أن تغويني.. كان صوتها وهي تقرأ كأنما تصب عسلاً في فمي، فكرتُ في أن أعود إلى سطح الباخرة، أهرب من أفيون المرأة أو أفيون الحكاية التي يجر سحرها إلى الموت.. دون شك إذا استمرت في القراءة فإنها إما تقتلني أو تقتل نفسها.. إن لعنة «طوق الحمامة» ستأخذ على الأقل واحداً منا، كما أخذ الحلبية، التي

أمر فقيه حلب ومؤذنها ومغنيها في الوقت نفسه أن يُدفن معها كتابها، كي تأخذ لعنتها معها.. أخطأتَ أيها المؤذن ذو الصوت الجميل فلعنة «ابن حزم» قائمة، حتى في عرض هذا البحر الذي نقطعه مهجّرين أو هاربين.

«اختطاف طائرة من مطار هواري بومدين بالجزائر العاصمة من قبل كومندوس ينتمي إلى المجموعات الإسلامية المسلحة..».

كنت أخفي وجهي وأهرّب عينيّ حتى لا تأكلني الغواية.. أما هي فكانت تغرق أكثر فأكثر في عسلها، مستلذة صمتي، عارفة أن أذنيّ على الرغم من امتلائهما بموسيقى المطر في الخارج والذي يدق زجاج النافذة، إلا أن قطيفة الحكاية كانت تغمرني بكل عنفوان نعومة الزريبة.. كانت مدركة أن أجمل الحكايات هي تلك التي تُسمع وتُحكى مغموسة في موسيقى مطر متآمر نازل بحرية حصان طليق في البراري.. تمنيتها أن تتوقف.. ألا تأكل من تفاحة الخطيئة أو الموت أو اللعنة، أن تطرد ما استطاعتْ شيطان ابن حزم ذلك الفقيه الإباحي الظاهري الكافر.. تمنيتها لو تسمع مني ولو للحظة حكاية الحلبية التي قتلتْها لعنة الحكاية.. استدرتُ فوجدتها يا سبحان الله تحكي بعينين مغمضتين.. تقرأ ولا تقرأ، تقرأ الحكاية مغمضة العينين.. إنها نائمة.. إن ابن حزم هو الذي يقرأ عليها سخافاته كي يقتلها.. مازوخي.. إنها مستسلمة له، تنتظر نهايتها أو نهاية الحكاية، عليّ أن أرفع الكتاب المفتوح أو المصلوب فوق نهديها، وأن أخلّصها من الهاوية، فأنا لست مستعداً ان أُجرجَر في محاكم لا أعرف حتى لغة بلدانها.. لأبيت في الأخير في سجن «اليرموك» ذلك الذي بناه المغول ولا يزال «مفخرة» السلطة برطوبة زنزاناته وخوفه وعذابه وحكاياته.

تجرأتُ بعد أن تأكدتُ من نومها ومن حقيقة هذيانها، إنها متعبة ما في ذلك شك. امرأة ووحيدة ومسافرة.. الرسول قال: «السفر قطعة من عذاب».. تناولتُ الكتاب من على صدرها.. لأول مرة انتبه إلى الخانة الجميلة على وجنتها. كان وجهها حاداً وأليفاً.. كأنما سافرنا معاً مرات قبل هذا اللقاء العجيب، قفلتُ الكتاب، ارتجفَتْ، تأكدتُ من أن النافذة مغلقة، دفدفتها بالغطاء الذي كان خفيفاً ورقيقاً لا يصدّ كلّ هذا البرد في الخارج.. تذكرتُ أننا في شهر فيفري.. لا يوجد بار في الباخرة.. هذه باخرة شحن وليست باخرة مسافرين.. وأبو هيثم نفض جيوبي من كل رائحة نقود وسحب حتى ساعتي من معصمي.. سامحه الله..!! تذكرتُ أنني لم أسألها عن اسمها ومقصدها.. ثم استدركتُ: هذه أسئلة سخيفة!!

هي ليست أكثر من أسئلة رجال الأمن في الميناء أو حراس الحدود.. إن كل الناس لا يحملون أسماءهم الحقيقية، أو التي تليق بهم، يسمى الابن على جده، وجده على جده، وتسمى البنت على جدتها وجدتها على جدتها وهلمّ جراً.. لا أحد يحمل اسمه، إننا نحمل أسماء من سبقونا، كلنا مقنّعون في أسماء غريبة.. بدل أن أسألها عن اسمها، علي أن أفكر في الاسم الذي سأعطيه لها، الآن وهي نائمة.. أشعر بسعادة لأن هذه المرأة شغلتني فأنستني وحشة الطريق وصرفتْ عني دوخة البحر الهائج.. أنا سعيد لأنني لست وحيداً.. أرغب في الصعود إلى سطح الباخرة، لكني أخاف مغادرة الغرفة فتخرج المرأة أو تموت، أو تبحث عن آخر غيري يختفي في هذه الباخرة، آخر غيري هارب من موت إلى موتين، ليسمع الحكاية التي توقفتْ عن سرد أحداثها بمجرد أن رفعتُ الكتاب من فوق نهديها.. قررتُ ألا أغادر الغرفة، أدركتُ أن المرأة تحاصرني أكثر وهي

نائمة، من كل جهة تحاصرني فلا تتركني أتحرك.. انسحبتُ من الفراش الذي لم أحتل سوى طرفه الأقصى حتى لا أزعجها، أو تشعر بأنني غريب أغتنم فرصة نومها فأراد الاعتداء عليها.. أنا لا أريد أن أزعج غيري.. ليس لي الحق حتى في إزعاج نفسي، كانت الحلبية تقول لي: أنت مزعج لأنك لا تعرف إزعاج الآخرين.. الإزعاج حق الإنسان في الحياة.. كنت أضحك فأغنّي لها مقطوعة من أغاني الشيخ العربي ساري.

انسحبتُ من تحت غطاء السرير فاستوتْ المرأة فيه.. إنها متعبة، لا يكون الإنسان طفلاً إلاّ في النوم أو التعب الناتج عن الحيرة.. الآن وهي نائمة سأحكي لها.. سأقرأ لها ما بقي من حكايات العشاق الذين جنّوا لفقدان عشيقاتهم ومنهم الأمراء والشعراء والنحويون وصيادو الأسماك وبائعو الورد.. لو كان معي «العود» لعزفت لها قليلاً من مقطوعات ومقامات بن سوسان.. يا ربّ هاأنذا أخدع الحلبية والتي أقسمتُ لها بأني لن أتعلم الموسيقى إلا لأجلها.. لقد تعلمتها وكنت أريد أن أواصل دربها دون انقطاع، بل إني فكرت أن أترك العمل في مصنع حرفة الذهب، بعد أن أنهيتُ صياغة الخاتم، لأتفرغ للموسيقى، لكنني تركت ذلك ذاك المساء.. تركتُ دروس الموسيقى مكرهاً، بعد أن عشق معلم الموسيقى صوتي، وعزفي، وأراد الاعتداء علي.. لقد أرادني.

كانت الحلبية تقول دائماً:

- في حلب يدرك الإنسان أن لا فرق بين الغناء والأذان وتجويد القرآن وقراءة الشعر.. كل هذا يدخل في باب الصلوات والخشوع.. وبعضهم يضيف إليها جلسات الحضرة والجذب في حلقات الدراويش وأهل الكرامات بطقوسهم الغيبية.

حين بدأتُ الحديث عن الحلبية، بل بمجرد ذكر اسمها، فتحتْ المـرأة عينيـها وكأنمـا تراقبنـي خوفـاً مـن أن أتركـها وحيـدة.. لقـد استبعدتُ فكرة الغناء والعزف حتى لا أخدع الحلبية ولا أزعجها في قبرها غير الرحيم. علي الاّ أفكر ابتداءً من اليوم في الموسيقى.. بعد ان أقطع البحر.. سأعود للبحث عن أمي ورفاقي.. أشعر الآن أن سوس السياسة يسوسني.. كي أطمئن عليها سمحتُ لنفسي برفع نظري إليها، لأجد عينين واسعتين سوداوين غارقتين في بهجة من الجلال والاشتعال.. ثم جرجرتُ نظري إلى الكتاب بعد أن تأكدتُ من أنها تفترسني أو أن الحكاية هي التي تفترسها.. حكاية رجال خُدعوا في عشيقاتهم وعشيقات ضيّعن فرسانهن في البحر وفي البئر وفي السجون وفي المنافي أو في غابة النساء الخطيرة الموحشة الوحشية.

الجو ماطر.. ماءٌ ينزل على ماء.. ريح أيضاً عنيفة في الخارج أو في الحكاية التي لم يجد لها ابن حزم نهاية أخرى غير نهاية «الجنون». لا بدّ أن نتحرر من الحكاية وقد بدا النهار من خلف نافذة هذه الغرفة في هذه الباخرة.. بخارُ أنفاسنا على الزجاج.. أنفاس لاهثة خلف سرب من المجانين يهربون على أوراق كتاب «طوق الحمامة».. لقد وجدتُ فكرة.. تلك آخر ما تبقى في قاع رأسي.. سأسمي هذه المرأة «حمامة».. فكرة سخيفة!! هل أنا الذي يسمي عباد الله؟! هل ستقبل بهذا الاسم؟! لماذا لا نتفق على أن يطلق الواحد منا على الآخر الاسم الذي يرغب أن يدعوه به، وعلى الثاني الاّ يرفض والاّ يناقش هذا الاسم الذي يرغب ان يدعوه به، شريطة الاّ يكون الاسم لشخصية من شخصيات «طوق الحمامة» ولا لشخصية سياسية ولا لشخصية دينية.. أن يكون اسماً، عَلامة وكفى.. اسماً وكفى..

قالت لي وقد أدركتْ حيرتي وعذاباتي.. وقد انتبهتْ أيضاً إلى ضوء النهار: لا تحكِ في النهار فستُولد لك ذرية قرعاء.. سكتتْ قليلاً وكأنما كانت تنتظر أن أغلق الكتاب، وهو ما فعلته تماماً، ثم واصلتْ حديثها وهو ما كنت أنتظره تماماً.. وقالت وهو ما كنت أتوقعه تماماً أيضاً: لماذا لا تفكر بجهر، لا تقلْ بصوت مرتفع آخر فكرة ظلتْ في قاع رأسك قبل أن ننزل على الشاطئ. انتبهتُ إلى أننا وصلنا، وأن الباخرة رست، وعلي أن أستعد لمواجهة مالطا ومنها إلى تلمسان.. حفزتني أن ألخص لها الحجرة أو الفكرة الباقية في الرأس على عجل قبل أن يهرّبنا عبر سلالم غريبة، أحد ربابنة الباخرة.. كما قال أبو هيثم.. أو أبو هشام؟! لا يهُمّ.

- علينا أن نترك اسمينا اللذين لصقا بنا منذ لعنة الولادة، وأن نترك ديننا في البحر ونواجه معاً اليابسة.. أو السياسة.

ضحكت «حمامة» وادركت انها كانت تفكر فيما أفكر فيه فقالت لي:

- ازح الستار وافتح الباب يا زهار فهذا الريّان الذي سيوصلنا إلى الشاطئ.

أنا «حمامة».. طيرٌ حرٌّ.. طير المنافي. قدري كقدر زهار.. هو الذي اختار لي هذا الاسم، أو على الأصح لنفسه.. حتى لا أزعج زهار في موته لا داعي لذكر اسمه الحقيقي.. ذلك وعد بيننا.. أصل الشجرة التي أنا فرعها تعود إلى قرية «تاغدامت» عاصمة دولة الأمير عبد القادر. كيف رمتْ بي الأقدار إلى حيّ «اليرموك» على أطراف مدينة تحب هي الأخرى الكرز والموسيقى كما تلمسان.. هو القدر نفسه الذي رمى بزهار وقبله ابن حزم، والأمير عبد القادر وابن عربي.. هو ماء دمشق أو رائحة النساء والروضة هي التي جلبت كل هذا الخلق إلى قدمي قاسيون العاري.. هو عطش الحناجر إلى بردى.. كان بردى!!

ركب جدي رأسه. رأس بربرية ورمى بفأسه في التراب. تحرر من نظرات المعمر الفرنسي الذي كان يملك سهل غريس، وتحرر أيضاً من سحر ابنته جاكلين التي أحبها.. تحرر من كل شيء.. سرق بغلاً من اصطبل المعمر ركبه وهجّ نحو الشرق.. باحثاً عن نبع الشمس.. قال: سأجلس إلى قدم الشمس هناك وأموت ذوباناً.. كان يبكي جاكلين ويردد وهو يُعنّف دابته في اتجاه لا اتجاه له..: الحبّ عبودية..

ولو كان حبّ الله.. كان يقطع المسافات ويكرر هذا القول أينما حلّ: الحبّ عبودية ولو كان حبّ الله، حتى اعتقدوه مجنوناً فقد عقله لأجل امرأة.

جدتي لم تطلب من أحد البحث عنه، قالت لإخوته الستة، إن قدره الشرق، هناك ترابه. وسلّمتْ بسهولة في زوجها. كانت مؤمنة بالقدر. وكانت تعتبر حبه لجاكلين قدره أو جزءاً من قدره، وأن الله هو الذي كتب له فوق جبينه ذلك. ومثل زوجة أخيهم قبِل الأخوة الستة بالأمر دون ندم أو حسرة أو تساؤل، ولم يعودوا يذكرونه سوى حين الوقوف أمام المحاكم مطالبين بتعويض البغل الذي سرقه الجدّ. أما الإخوة فقد اقتسموا الإرث، إرث أخيهم، وأهم ما فيه زوجته أي جدتي، التي تزوجت بعد اربعين يوماً من الأخ الأكبر، الذي ما فتئ أن مات، فجأة، طلعت روحه وهو يأكل حبة تين.. ثم تزوجت الأخ الذي يليه في العمر والذي بدوره مات بعد سبعة أشهر إذ سقط في البئر، ويقال إن موته كان سببه أخوه الذي يصغره بتسعة شهور وهو حمادة الذي ولد على سبعة أشهر، يقال إنه دفعه إلى البئر لأنه كان مغرماً بجدتي وأنها كانت مستعدة للزواج منه بعد تسبيع قبره.. يقال إن جدتي تزوجت الرجال الستة: حمدان وأحمد وعبد الحميد وحمادة وحمودة ومحمد.. كانت كلما مات أحدهم تستعد للزواج من التالي دون حسرة أو ندم مكتفية وهي تذهب لتنام في فراش الثاني: هذا قدرٌ مكتوبٌ في القلب وعلى الجبهة.. لا يمكن للمؤمن أن يكون ضدّ قدره.. من وقف ضد قدره فهو كافرٌ.. ويقال أيضاً إنها أكلت رؤوس الأخوة الستة في ظرف ثلاث سنوات، وأنها ظلت طوال حياتها دون زوج منتظرة عودة جدي لتأكل رأسه هو الآخر.. لكنه لم يسمع نداءها أو أن ذلك لم يكن مكتوباً في لوح القدر.

ركب جدي البغل المسروق، وسار ثلاثة وعشرين يوماً وليلة، حتى تعب البغل وخارت قواه وبكى البغل كما يبكي الرجال وتبكي النساء أيضاً، فباعه واشترى حماراً، ووفر فرق الثمنين للرحلة ولزاد الطريق الموحشة.

كانت نهاية رحلته حيّ المغاربة بالقدس، ففي هذه المدينة تعرّف على رجل هو الذي شجعه على البقاء في هذه المدينة الكسيحة والمؤلمة، اسم هذا الرجل الذي ظل جدي يذكره حتى وفاته هو: محمود الأطرش.

- محمود الأطرش كان قَدَري في الشرق، أيُّ رجل هذا المحمود، كان محبوباً من قبل المسلمين والمسيحيين أيضاً.. كان يقول دائماً قدرنا جميعاً أن نعيش في هذه المدينة.

في سنة 1948 خرجنا من المدينة.. في اتجاه الأردن، لنستقر تحت خيمة صغيرة على رأس جبل النواصر، على مشارف عمان.

علينا أن ندور الكرة الأرضية كما تدور هي، حتى نموت ذات فصل في ذات أرض.. لا يهم الأرض.. الموت يأكلنا في أي مكان كنا..

منفى يسلمنا لمنفى ليسلمنا لآخر.

على مشارف عمان لم يطل بنا المقام.

المرأة التي تزوجها جدي جعل مهرها ثمن حماره الذي أخذه بديلاً عن البغل المسروق في قفصه بتونس مع خُرج من تمر الجريد الرديء، وبعض أوراق النقد الإنجليزية لم يعرف قيمتها الحقيقية أصلاً.

أمي تركناها في مقبرة صغيرة بجبل النواصر دفناها خفية حتى

لا ندفع ثمن القبر في تلك المقبرة التي كان يملكها تركي قاسي القلب، الذي اضطر ان ينبش قبر أحد أمواته حين لم يدفع أهله الثمن كاملاً، وقد سحب الجثة وأعطاها للكلاب التي تسممتْ جميعها إذ افترستْ الجثة. ومنذ أن أخرج الجثة من قبرها يقال إنه أصيب بالبرص لعنة من السماء عليه، كان جدي وهو يختصر موت أمي يقول:

- الموت واجبٌ أيضاً.

كنت أشعر أنه يقول ذلك كي لا نسأل كثيراً عن قبرها وألاّ نفكر في زيارته، وكلما طالبناه بالذهاب لزيارتها تحت التراب كان يقول:

- إنها هناك. مشيراً إلى المقبرة، سنذهب الجمعة القادمة، إلا أن هذه الجمعة القادمة لم تأتِ. ولم نزر قبرها ولو مرة واحدة، أُدرِك الآن، أن التركي قد رمى جثتها هي الأخرى إلى ما تبقى من الكلاب.

- الموت واجبٌ أيضاً.

على رأس ذلك الجبل «جبل النواصر» ولدتُ ليحمّلني جدي اسماً هو اسم عشيقته الفرنسية التي هرب من قهر أبيها وقد ظلّت كالعطش في حلقه، سماني «جاكلين».. وهو الاسم الذي أحمله في أوراقي الرسمية.. وحين انتبه بعد مدة إلى غرابة هذا الاسم بين جيراننا من البدو الرحل وبين أطفالهم في هذا الحيّ الذي نبت هكذا كما نبتت المقبرة، غيّر اسمي فأصبح يدعوني «كيلين»، وتبعه في ذلك أهل الحيّ والبدو الرحل، وكان إذا ما سألني أحدٌ عن معنى اسمي هذا، أقول له على الفور:

- إنها اسم عين فوارة يسيل ماؤها في الليل ساخناً بل غالياً،

ويسيل في النهار بارداً بل ثلجاً عذباً، توجد هذه العين عند سفح جبل ولد فيه الأمير عبد القادر نواحي معسكر بشمال إفريقيا، وأن الأمير حين كبر واشتد ساعده، كان لا يخرج لمحاربة الفرنسيين المستعمرين والأتراك أيضاً إلا إذا شرب هو من هذه العين وشرب منها جميع جنده.

كيف جاءني هذا التعليل لستُ أدري؟!

مع مرور الوقت نسي جدي أصل الاسم والتسمية، وبدأ هو الآخر يثق في هذه الشروحات، التي أخذ ينقلها لأصدقائه كلما اضطر إلى أن يشرح مصدر اسمي هذا.. ونسي الناس الذين حولي «جاكلين»، ونسيته أنا الأخرى التي صدقت بحكاية العين الفوارة والمثلجة، وكم تمنيتِ أن أشرب منها.

ذات مساء ضحك جدي، وطال ضحكه الليل كله. استغرقه ضحك هستيري، كان يحكي عن إخوته الستة: أحمد وحمادة وعبد الحميد وحمودة وحمدان ومحمد الذين تزوجوا جدتي من بعده واحداً واحداً، وماتوا واحداً واحداً، وعندما مات آخرهم ظلت جدتي تتمنى عودته وتبكي حتى فقدت بصرها، لم تهدأ غيرتها من الفرنسية «جاكلين» حتى رحلت إلى العالم الآخر.

كان جدي يضحك أو يبكي وقد عادت جاكلين لتسكنه، فيأخذ يدي ويقول:

- كيلين يا عيناً فوارة أعطيني ماءً فقد اشتقت إلى الشراب الذي تركته.

أقوم فأملأ غرّاف ماءٍ فخاري، أضعه بجواره. فيمسك بيدي ويقول:

- أين محمود الأطرش.. هو الوحيد الذي سيعود إلى بلادٍ تركناها جميعاً.. تمنينا معاً أن نموت فيها.

الموت واجبٌ ومتعة أيضاً يا جدي.

هذا الصباح عاد جدي إلى هدوئه، كان ساكتاً أو خجولاً من لسانه الذي فاض فأخرج ما في قاع القلب، وقفت سيارة شحن صفراء مليئة بكتابات: آيات قرآنية ودعوات وأمثال شعبية عن القناعة وأحاديث نبوية ومطالع أغنيات أم كلثوم.. توقفت ليشحن جدي صحبة رجلين أشياءنا.. الثالث لم يلمس شيئاً، إنه السائق الذي كان يدخن ويسخط قائلاً:

- لو علمت أن خيمتكم في هذه الأحراش ما كنت لأسلك بشاحنتي كل هذا الطريق..

جدي لم يهتم كثيراً لغضب السائق الذي كان يدخن ويشرب الشاي دون توقف، نظر إليّ وقد وجدني كبرت، لأول مرة انتبه إلى أنني كبرت، ثم قال ضاحكاً:

- النبي محمد عليه الصلاة والسلام عليه، رجل تجارة وراسمال، صاحب رحلة الشتاء والصيف، تجنّب دمشق فلم يدخلها.. حذراً من عبقرية تجارها.. واجيء أنا البربري بعد كل هذا الزمن أريد أن أدخلها.. نبي يُجانبها وبربري حفيد عبد القادر يدخلها..

هزَّ راسه، مدركاً عبثية الموقف ثم قال

- نموت حيث مات الأمير عبد القادر.

لفترة طويلة ظلت حركة جدي المعبرة عن تمعنه في المغامرة التي يُقْدِم عليها وهو يدخل دمشق، ظلت عالقة في ذهني.. لكني

فيما بعد عرفت أن هذه المدينة ليست شرسة ولا غريبة.. في هذه المدينة تعلمت أكثر مما درست، كنت أتمنى أن أدرس الموسيقى فذهبت إلى الأدب العربي. لم أحبّ شعر محمود درويش، لقد أحببته هو. الطلبة يحبون الشعر وأنا أحب الشاعر. هم يحفظون شعره ويشترون دواوينه وأنا أجمع صوره، أقصها من الجرائد والمجلات وأرتبها في ألبوم خاص. أقرأ وأحفظ شعر نزار قباني وأحب محمود درويش. أساتذة اللغة العربية ضدّ الشعر، أشكالهم وكلامهم تجعلك تفكر في «الجزر» أو «اللفت» أو «البصل» أو أي شيء له علاقة بالمعدة.. ولا تفكر مطلقاً في الشعر أو الموسيقى.. أستاذ اللغة الإنجليزية خريج جامعة «اكستر» هو الذي جعلني أحبّ شعر نزار قباني وهو الذي نبهني إلى كتاب «طوق الحمامة».. كتاب «اللعنة» الذي لم أستطع أن أفصح لأستاذ الأدب المملوكي أنني قرأته.

تمنيت أن أتزوج محمود درويش كي أكرهه. كي أتخلص منه، من جرحه، كي أتحرر منه.

تخرجت من قسم اللغة العربية، فاشتغلت معاونة محاسب في شركة المطاحن والمخابز.. قلت لكم إن دمشق ليست شرسة. رقيت إلى محاسبة رئيسية في هذه الشركة بعد تسعة شهور. كانت ترقيتي غريبة.. قلتُ لكم إن دمشق ليست غريبة.. فبعد أن زارنا، ذات عيد وطني، أحد قادة القوات الخاصة، استغرب اسمي «كيلين»، وحين شرحت له معناها، وأنه يعود إلى عين، نبع، فوارة كان يشرب منها الأمير عبد القادر رقيد دمشق وصحبه قبل أن يخرج في غزواته ضدّ الترك والفرنسيين، أعجب باسمي وبنسبي وبي!! وبعد ثلاثة أيام جاءت ترقيتي إلى محاسبة رئيسية أولى في

الشركة، وهو منصب أهم من منصب المدير العام.. وبعد يوم من وصول قرار الترقية تمَّ تنصيبي، وكتبتْ عني الجرائد وعن الأمير عبد القادر أكثر وعن العين الفوارة التي أخذتُ منها اسمي شيئاً لم أكن أعرفه أنا ولم يسبق لي أن قلته.. صحفي كتب ما يلي:.. وكانت أحصنة الجنود من جماعة الأمير عبد القادر، هي الأخرى إذا ارتوت من النبع، تتحول فوراً إلى براق، يحمل الفرسان في السماء..

كنت أقرأ وأضحك وبي إحساس خوف وحيرة مبهمة. وبعد ثلاثة أيام من تنصيبي بدأت مكالمات المسؤول الذي زارنا.. مكالمات هاتفية لا تنقطع.. باقات ورد تملأ مكتبي كل صباح.. قنينات عطر في جوارير المكتب.. وحين عرفت أنه سيخطفني ويتزوجني غصباً عني كما حكت لي صديقتي اقتدار، قدمت شهادة مرض إلى المدير العام، وقررت أن أركب هذه الباخرة. أبو هيثم هو الذي رتب شؤون سفري في أقل من ثلاثة أيام، أبو هيثم رجل ممتاز، يحب الفلوس كثيراً، يحب الفلوس وكفى، يحل المشكل كل المشاكل ولو كانت معلقة في مكتب رئيس القوات الخاصة، كل الناس تعرف أبا هيثم، الجميع يحتاج إليه، رؤساء - مدراء شركات يبحثون عن قرار يرفع أجورهم، ضباط يبحثون عن ترقية عسكرية، ضباط احتياط يبحثون عن طرق لمغادرة الجيش. آباء أغنياء يبحثون عن إعفاء لأبنائهم من خدمة العلم الإلزاميّة.. أهل يبحثون عن ذويهم في سجون من عهد المماليك.. أبو هيثم رجل طيب لا تقصده إلا ويقول لك: هذا ممكن. حين طلبت منه المساعدة لمغادرة البلاد، لم يسأل لماذا؟ لكن بمجرد أن عرف أنني أشتغل محاسبة رئيسية في شركة المطاحن والمخابز قال لي:

- أنتِ التي رقيت منذ أسبوعين.. شاهدت صورتك في جريدة عند الحلاق أبي ياسين.. دون شك أنتِ رافضة.. أعرف.. أعرف

في البداية خفتُ.. لكن بعد أن نفض جيوبي من مرتبات ستة أشهر، أحضر لي جواز سفر يمني مختوم بالختم الكهربائي، دون اسم، قائلاً بجدٍّ مليءٍ بالسخرية:

- اكتبي اسمك وملّتك وتاريخ ميلادك.. خروجك سيكون يوم السبت القادم من ميناء طرطوس.. لا تخبري أحداً.

ابو هيثم رجلٌ طيب.

وجئت الميناء، دخلت باخرة الشحن هذه صحبة أبي هيثم، سلمنا على ربابنة القيادة.. كانوا بألبستهم الجميلة، على الرغم من غموض بريق في عيونهم إلا أنني لم أسقط في الهاوية.

وانا أخرج من غرفة القيادة في اتجاه غرفة خاصة بالركاب كما قيل لي فكرت أن المرأة لا يمكنها أن تتزوج إلا ربان طائرة أو ربان باخرة او فارس خيل او شاعراً.

باب الغيرة

يحمحم الدوتشي وقد سرقه نومٌ عميق مليء بحلم بنفسجي، إنه يحلم بكلبة.. إن الدوتشي حين يحمحم بتلك الطريقة التي تشبه حمحمة الحصان، فإنه يكون غارقاً في حلم مفعم بالرغبة في كلبة أو أنه يتذكر أختي برائحتها العجيبة.

حاولت أن أوقظه، إلاّ أن ابن بطوطة قال لي:

- اتركيه في شِعره.. سيموتُ قابضاً على وهم من كلبة جميلة لم يعرفها.. إنه مثل الشعراء.

ضحكنا معاً، ممّا جعل الدوتشي يستفيق، وقد أدرك أن الضحكة الصادرة من أنثى ليست ضحكة أختي التي أحبها حبّ كلبته البنفسجية. فتح عينيه بصعوبة وقد تيقن أن عمره بدأ يخونه، وأن حبه قد أنهكه وكذا أنهكه حلمه.

- هل برد الشاي؟

- لقد برد الجوّ.

سحبتُ جسدي نحو حضن ابن بطوطة، فغمرني برائحة شبيهة

برائحة بهارات الهند والسند وزنجبار.. من جسده كانت تصعد حرارة كحرارة حَمَّام تركي. أدركُ الآن وأنا في حديقة رائحته، لماذا كانت أختي تكره «الأكرانية» وتتمنى ان تأكل كبدها.. غبية أختي تكره «الأكرانية» وتحقد عليها و«حمامة» أختها تأكل قلب ابن بطوطة بتلذذ، وهي لا تدري. رحمة الله عليك يا «يمامة»!!

الغيرة هي التي قتلتها.. «لوفا» الأكرانية هي السبب.. وما سجله ابن بطوطة في مجلّده عنها بتلك اللغة التي سرقها من المتنبي هو الذي عجّل برحيلها.. الغيرة أجمل شيء طفولي، صادق وبدائي فينا.

«القلب اللي ما يغير أعطيه حفنة شعير»!!

هند حينما أكلت كبد حمزة عمّ الرسول محمد (ص) كانت صادقة، شاعرة ولبؤة، لقد أحبته فإذا هو غارق في حروب لأجل العقيدة.. لا عقيدة في الحياة سوى عقيدة المرأة.. المرأة هي أكبر وأهم عقيدة للرجل.. عليه أن يحبها فيبكي عند قدميها، ويكسرها، يطحنها حين تغدر به أو تخونه أو تحوّل عينها عنه.. عليه أن يكفر بها، أن يكسر هذا الصنم كما كان يفعل آباؤنا القدامى حين كانوا أقرب إلى الصدق والحب وعظمة الإيمان وعظمة الكفر.

لماذا يتحدث ابن بطوطة عن «حمامة» بكل هذه التفاصيل؟ لماذا يخصص لها كل هذه الصفحات من مجلّده، لماذا حين يكتب عنها تكون الحروف واقفة بهذه الأشكال على غير عادتها في الصفحات الأخرى، حين يكون الحديث عن مراسيم الموت والدفن والدين في الهند أو الزواج في زنجبار والدومان؟! إن «حمامة» ليست سوى «لوفا» الأكرانية متلبسة في جلد فلسطينية تدعي أن أصلها من مدينة

«معسكر» أو «تغدامت»، من سلالة الأمير عبد القادر. وإن صوت الأمير هو الذي ملأ أذني جدها بنداء عظيم فخرج نحو الشرق، نحو منبع الشمس، باحثاً عن قبر النبي المصطفى.

إن ما كتبه ابن بطوطة عن حمامة، كذبٌ في كذب، يقول ابن بطوطة، «وأعلم سيدي أن الفتاة التي تشبه شجرة «حَب الملوك»، بَسَقَ جسدها بسرعة بمجرد أن شربت ماء غوطة دمشق، وأنها كانت تزور «دمّر» حيث أنها أكدتْ لنا، أنها عثرت على بقايا خطوات الأمير منقوشة على أديم أرض صخرية، وأن الناس هناك حوّلوها إلى مزار يؤتي طلبه.. وأنها توقد ثلاث شمعات في هذا المكان حيث أثر الأمير: واحدة يوم الجمعة وثانية يوم السبت وثالثة يوم الأحد، وأنها كلما أشعلت الشمعات ازداد نهداها كبراً واستدارة..

اعلم سيدي أن مصير الأمير مثل مصيري، فأنا أحمل اسم عشيقة جدي المسيحية، وأني أشعر أنها فيّ حاضرة، وأنا أرافق في الحياة رجلاً اسمه «زهار» أتخذ منه زوجاً، وأنا مسلمة كما قيل لي على قمة جبل النواصر بعمان.. والله على ما أقول شهيد، إلا زلة الغيرة لا حساب عليها ولا عقاب..»،

إن اهتمام ابن بطوطة بـ «حمامة» يزعجني.. البارحة لم أقَيّل، أنا التي أعتبر نوم القيلولة أهم من نوم الليل إذا عسعس. حين يهربُ عني نوم القيلولة تطبخ لي أمي قدراً من سائل حامض غريب لا أعرف حتى اسمه، أشرب منه فنجانين كبيرين أستريح فأنام، هذا اليوم لم يفعل المشروب فعله، فظللتُ النهار كله أتقلب على فراشي أحمحم كالدوتشي وأبحث عن جسد ابن أختي البكر الذي يلمه ظل الأشجار في الخارج.. أفكر في عظمة هند التي أكلت كبد حمزة عمّ

الرسول، هذه أعظم امرأة في العرب. المرأة إذا خدعها الرجل عليها أن تأكل أحشاءه ثم تبكي العمر كله على تراب قبره، حتى تُدفن إلى جواره، ساحاول أن أسأل ابن بطوطة عن حياة هند، عله يفهم قصدي فيخاف فيُسقط «حمامة» من راسه.. ابن بطوطة خبير بأمور النساء وأخبارهن، أنا أعرف انه لم يكن في كل رحلاته مغرماً بالجغرافية والطبيعة والعادات والإثنيات، إن ما هجّره وجعله يدور الأرض فاقداً عقله هي النساء ورائحتهن.

أمي جالسة عند قدمي، تبكي وتبكي وتقول: سأفقد الثانية.. هذه قلبها أرق.. الأولى قتلتها الأكرانية، وهذه ستقتلها اليهودية.

كنت أدرك أن أمي تخاف من «حمامة» على الرغم من أنها تعيش معنا تحت سقف واحدٍ. هي أختنا يا أمي. كلما فتحت «حمامة» كتاب «طوق الحمامة» ودخلت في وحشة كلامه، تستغل أمي غيبتها فتحكي لنا حكاية ذلك اليوم الذي توفيت فيه «مريمة» في القرية، وكيف أنها كانت في أيامها الأخيرة تنتظر عودة ابنها من الشرق، ابن هَجَّرته أيام الثورة إذ أصدر شيوخها حكماً بالإعدام عليه.. «مريمة» كانت تهذي قائلة: كان يحب الجزائر بلاده.. لم يهربْ، رفاقه هم الذين أمروه بالخروج حين أدركوا حجم الخطر عليه..

كانت جنازة «مريمة» آخر جنازة عندنا.. خفية، كان المسلمون يبكون لأنهم فقدوا، وبهذه الجنازة وإلى الأبد، شيئاً منهم، وعلى الرغم من أن لا أحد تجرأ على الذهاب في جنازتها، فلم يحتج أحدهم على دفنها بين قبور ذويهم، وقد ظلوا يخفون دمعهم في بيوتهم.. وبدأ الناس يفكرون في هجرة المكان ومغادرة هذه الأرض التي أصابتها اللعنة.

كانت آخر الجنازات يا زهار

لقد تأخرت يا زهار كثيراً

هاأنت تبحث عن قبرها بين القبور، وفتوى الشيوخ، على الرغم من مرور أكثر من ثلاثين سنة، لا تزال تلاحقك، حبرها لا يزال طرياً، والمدية جاهزة.

الحمى تأكل جسدي الذي أشعر به صفيراً، تسلقت السلم هذه الليلة أيضاً، كنت راغبة في أن أسأل ابن بطوطة عن «هند»، وأن أتشمم جسده علني أعثر على بقايا «حمامة» في أطرافه أو في عطره المخلوط من مجموعة عطور جمعها من رحلاته إلى العربية وآسيا وإسبانيا والصحراء والسودان.. عطر حمامة عطر آخر، فلسطينية أم شامية أم حفيدة الأمير عبد القادر؟!

هي في ركنها غارقة في وحش كتابها «طوق الحمامة»!!

حاولت أن أقرأ عيني ابن بطوطة، عيناه فيهما من سماء الأندلس وبقايا خيبة سارية الفاسية وحرارة السودان ودهاء الأفعى، حاولت أن أبحث فيهما عن إحساس يجتاحني كلما فكرت في «حمامة» التي ستأكله بدهائها وتتركني لصفار العينين كما كانت أختي «يمامة» الغبية أو الساذجة، أختي التي هي الآن فيّ، تسكنني حتى في بحة صوتي التي تخدع حتى الدونشي الذي يحبها أكثر من أي أحد. النساء تبلع الرجال بأكتاف صلبة وأنا أبلعُ أختي.. «حمامة» تقرأ في كتابها كيف يؤكل الرجالُ دون مضغ، وأنا فرحة ومثلي أمي لأنني أكلت أختي جيفة.. هند أكلت حمزة فكانت امرأة أكبر من التاريخ، وأنا أكلت «يمامة» لأربح صفار العينين وجسد ابنها البكر الذي بدأت حرارته حارة.

الفقيه عاشق كتب الشيخ النفزاوي يفكر في طريقة للتخلص من جثة زهار.

- أمه كانت آخر ثقل على الأكتاف، فإذا هو يجيء ليفتح الجرح من جديد.

أعجبته قصة موسى: لماذا لا نضع جثته في تابوت لوحي مُمَسْمَر ثم نرمي به في البحر.. ليكن البحر نافعاً مرة واحدة لنا والصيف كله للأجانب من الأوروبيين، بهذه الطريقة نرتاحُ فلا نرتكب ذنباً كبيراً إذ نحفر له قبراً... على كل حتى إذا ما دفناه فسينبش من قتله قبره ويرمي بجثته خارج المقبرة.

كان الفقيه يدخن حشيشة ويفكر في جثة زهار التي بدأت تكبر وتكبر فتسد عليه مساحة هذا المسجد الصغير:

- حين أرمي بجثته في البحر فتلك سبيلي إلى قيادة القرية دون منازع.

من قتل زهار؟

أنا امرأة، وأعرف جيداً رائحة القاتل، أنا لست الدوتشي، لم أفقد حاسة شمي الأنثوية، إن الذي قتل زهار ما هو إلا ابن بطوطة، قتله كي يخلو له الجوّ بحمامة، كي ينام في حجرها ويسمع منها حكايات كتابها «طوق الحمامة» عن الغلمان والغيرة وغبار الخيل ومآثر السحر. كنت متيقنة إن هذه المرأة بمجرد أن ترتاح من «يمامة» التي أطعَمَتْها سمّا يقتل بالتقسيط، سمٌ احضره ابن بطوطة من طاجكستان، كما يحكي سكرتيره ابن جزي الذي كتب أكثر مؤلفاته المليئة بكذب المغامرات مع الجغرافية والخوارق وروائح البخور وبكاء المآتم، ستأكل قلب ابن بطوطة. كان حزنه على أختي «يمامة» ليلة موتها، كحزنه على بلاد يخرج منها دون أن يدخلها أصلاً.. إن ابن

بطوطة ومنذ ليلة فندق «النجمة» بمالطا، سكنته هذه الشامية أو الفلسطينية أو المعسكرية.. إنه لا يحب سوى «حمامة» و«الدوتشي»، «حمامة» هي التي ستلتهم قلبه وكبده نيئين، إنها عارفة بأمور الرجال أفضل مني، ومما علمته لي أمي المحترفة في صناعة الشاي الأخضر. ربما كانت هند تلك المرأة القوية، بما ملكته من قوة خارقة ضدّ المكان والزمان والانكسار. لقد انتصرت في هزيمتها. وأن العبد بلال بكل ما له من قوة في الإسلام، فإن تلك الصورة أخذها من خنوعه وخضوعه وعبوديته المطلقة لهند. لا وجود لتاريخ دون امرأة. لا وجود لحرب لا تحركها امرأة، ولا وجود لانتصار دون امرأة.

حمامة وحدها المنتصرة ضدنا جميعاً.

كما أمَرَتْ هند عبدها كي يفتح أحشاء حمزة ويطعمها كبده، فهو لم يعد سوى رجل من ثلج أعطى قلبه للدين ونسيها، كذلك أمرت «حمامة» من قتل زهار وهو الذي ظل يتستر بقبر ادعى أنه قبر أمه «مريمة»، ليظل الليل بين القبور، يعيش بستان ذاكرته مع الحلبية التي كانت تعشقه وتعشق صباح فخري مهلل جامع حلب الكبير.

قالت حمامة: لقد خدعني، اتفقنا قبل أن ننزل على يابسة مالطا في اليوم الثالث عشر من الشهر السابع، على أن نترك، اسمينا وقلبينا وما فيهما من غبار وبساتين وأمطار وعواصف، أن نترك كل ذلك عرض البحر وننزل عاريين إلا من المستقبل. لقد خدعني، عليّ أن آكل مخه كي أستريح.

قيل، إنها حين علمت بموته، لم ترفع عينيها عن كتاب «طوق الحمامة» لرجل اسمه ابن حزم، زنديق وكافر قضى جزءاً من حياته في المنافي والسجون، وانه لكفره ووقاحته وأفكاره مُنع من التدريس

في جامع قرطبة الكبير. كان يتستر بظاهر إسلامي كي يكتب عن النساء والغلمان والجنون وأسرَّة الملوك.

«حمامة».. حفيدة هند وابن حزم، هي من ذريتهما، إنها لا تتردد في التأكيد لنا، أن هنداً تعود في روحها وفي جسدها. سبحان الله، تقرأ أشياء في كتابها تُسَوّسُ الرأس. كانت تقول دائماً، إنها تكره الخنساء، فهي امرأة بكّاءة، وتحب هنداً لأنها استطاعت أن تأكل كبد عمّ الرسول. كانت تأكل كبد حمزة وتفكر في كبد الرسول، تلك امرأة قادرة على كل شيء. الناس تقول إنها كانت تحب حمزة، وحمامة تقول أن هنداً كانت تحب الرسول فلم تجد طريقاً إلى قلبه، فكل الطرق سدّتها نساء كثيرات من قبائل كثيرات.

السذاجة قتلت أختي يمامة، كانت تفكر في الأكرانية، و«حمامة» على بعد خطوة منها تسمّم جسدها وتلتهم ابن بطوطة بالملعقة!! وتسخر من غبائها ومن غفلة أمي التي نسيتْ كل شيء، بما فيها صلاتها، ولم تعد تفكر سوى في مسامير السلّم خوفاً من أن تتصدأ فتنفصل اللوحات الأفقية فتسقط أختي. لو أنها سقطت مرة واحدة لانتبهت إلى أن الصعود لا يعني دائماً الذهاب إلى الفوق. أمي هي التي ساعدت على قتل أختي، الشاي «بالشهيبة» تارة وبـ«النعناع» تارة أخرى، وفي كل مرة لا تنسى أن تقطر فيه خمس قطرات من ماء الورد، وتصر ان يكون سكّره من سكّر القالب وليس الدقيق أو القطع الصغيرة المستطيلة الحجم.

أمي ليست سوى حارسة ابن بطوطة ومنظفة محبرته إذا ما يبس سمقها.

من قتل زهار؟ من قتله على قبر أمه ووضع فوق صدره فتوى يعود تاريخها إلى أكثر من ثلاثين سنة خلت؟

ابن بطوطة لا يقتل ذبابة، «حمامة» بيديها الناعمتين الجنسيتين لا تقتل لكنها تأكل الرجال. هند لم تقتل. إن زهار وهو يبحث عن قبر أمه، قد أفشى سراً كان من المفروض أن يكون قد رَمَاهُ في البحر قبل النزول في فندق «مالطا».. ولأنه خدعها اغتيل، كانت تتمنى أن يحضّر كبده في صحن من خزف منقوش نقشاً صينياً، صحنٍ اشترته من الطشقندي الذي لا يعرف العربية، أو قرأت عنه في كتاب «طوق الحمامة».. الواقع أن ذلك الصحن لم تشتره، ولم تدفع مقابله شيئاً، الطشقندي أهداها إياه علّه يكسب قلبها. مغفّل كبغلته، إنه لن يصل قلبها، ما دام لا يعرف العربية. العربية لغة العشق، وحدها اللغة التي تستطيع أن تلصق النساء من ألسنتهن في شوكة الصنارة. إنه الطشقندي يصطاد بصنارة دون شوكة. الذين اقترحوا عليه أن يقطع تلك الجلدة الصغيرة في رأس عضوه الجنسي كذبوا، فليست تلك الجلدة الصغيرة هي التي تمنع النساء من حبه.. إنه يصطاد بصنارة دون شوكة.. مسكين!! مغفل مثل أمي!!

حين أفكر في «حمامة» الجالسة في ركنها مع كتابها، وأفكر أنها ستهزمني، أرغب في إلقاء نفسي من علوّ هذا السطح. أو لأنسحب قبل الهزيمة، وانطلق للبحث عن الطشقندي، ثم أتزوجه فوق بغلته، ونقضي العمر كله ندور الدشور والقرى، أعلّمه العربية، مغفّلة أنا، لو علّمته العربية لوضعت له شوكة في رأس صنارته، ولن يصطاد سوى «حمامة» في أول تجربة صيد.

أشعر بحمّى تلتهم جسدي، تجتاحني رغبة احتضان جسد ابن أختي البكر، الذي بدأ يتعلم ما يريد وما أريد وما يُرادُ. ابن بطوطة يضع قلمه في المحبرة، ويُدَقْدِقُني بمعطفه الخشن قائلاً: هذه السنة هجم البرد قبل أوانه.. كان يريد أن يطمئنني بأن حالة الحمّى ليست سوى ارتجافة طبيعية.

الدوتشي هو الآخر يرتجف، وقد بدت عليه علامات الهرم، شاخ وفي قلبه شاخ أيضاً حلم إلى كلبة بنفسجية.. شاخ دون أن يمسك حلمه الذي لا يبعد عنه أزيَد من أربعة أمتار وبعض السنتمترات.

ابن بطوطة لم يكن يقصد الكلب، في حديثه عن شيخوخة الحلم، إنه كان يقصدني أنا. أشم رائحة عجيبة في معطفه، وأشعر داخله بأنفاس امرأة تزاحمني على دفئه.

صوت الفقيه يدعو إلى صلاة الفجر، ربما حتى قبل أوانها، صلاة لا يصليها إلا وحيداً، صوته مثير، فاقد كل لهلهات أذان الفجر الناعمة، كأنما يدعو الناس بحماس وعنف إلى الجهاد، شعر ابن بطوطة بذلك، فقام مسرعاً وقد طوى مجلّده ولف قصبه وغطّى محبرته وقال:

- لقد فعلها؟!

انسحبتُ أنا أيضاً، باحثة كعادتي عن أعلى لوحة السلم الذي يقودني إلى الفناء، حيث أمي تنتظرني..

هذا الفجر لم تنتظرني أمي.. زاغتْ رجلي من على اللوحة فسقطتُ متألمة.. ضحكتُ وفرحتُ لأن أمي لم تعرني انتباها، كانت غارقة في شخيرها، لأول مرة أسمع أمي تشخر، وتغطّ في نوم عميق.

تسللتُ إلى الغرفة لأجد جسد ابن أختي البكر دافئاً، فاتحاً عينيه ينتظرني، كي أسقط من سماء، كحبة كرز.

هذا الصباح، الطشقندي بالباب.

قيء في الحلق وأمي خائفة دون أن تصرح بخوفها، خائفة من أن أكون حاملاً.

جاء الطشقندي، بعد غيبة طويلة، وكأنما أدرك بوحي وأحس أنني سقطت البارحة أو على الأصح فجر هذا اليوم من أعلى السلم، وانني تحدثتُ في هذيان حموي مع نفسي، أنني أرغب في أن أركب خلفه البغلة وأدور معه العالم طولاً وعرضاً.. هو لا يرغب فيّ بقدر ما يبحث له عن شوكة لصنارته، الطشقندي يبحث عمن يعلّمه العربية كي يأكل قلب «حمامة».. كي يشرب هديل حكاياتها العجيبة المسروقة من كتاب ابن حزم صديق أسلافها المترجمين الأندلسيين في طليطلة.

سأركب خلفه، على بغلته أغامر، أعلّمه العربية وهو يعلمني الحساب والصمت وقراءة الفنجان والفسيفساء. أنا أحتاج كثيراً إلى معرفة الحساب.

هاهو يتحدث إلى أمي، إني أعرف الكلمة حتى قبل أن يتفوه بها، إذ يقضي نصف وقته في البحث عن الكلمات التي في أغلب

الأحيان تخطئ مكانها وتنحرف عن قصدها. لم يفاجئني ما يقوله لأمي عن حكاية الفقيه وزهار.. أمي تُركّب الجمل من عندها، تضيف إلى كلامه ما تريده هي، وتركّب الأحداث وتفككها ثم تركّبها وهو واقف يبحث عن كلمة أو عن واو العطف، يهز راسه دون أن يفهم كل ما تقوله أمي ولم يقله هو، بل ليس باستطاعة لسانه قول كل هذه الأشياء المعقدة المتقاطعة والمختلطة:

- تجمّع الرجال بالمسجد، رجال الأنحاء.. جاؤوا راكبين مركوباتهم من البغال والحمير وبعض الأحصنة الهزيلة. وقد جاء بعضهم يسوق أمامه قطعانه من المعز والأغنام.. جاؤوا بسيوفهم إذ جاءهم الخبر، سيوف الأجداد، وأجداد الأجداد، تلك التي تُلمّع وتدهن مرتين في السنة بشحم الجمال، سيوف لم تستعمل منذ أن حاول الحاكم التركي الاستيلاء على أراضي الفلاحين، لأنهم لم يدفعوا الخراج المطلوب للباب العالي، كانت المرة الأولى التي استُعمِلت.. تقول الحكاية إنها استُعمِلت بقوة وعنف، حتى سميت من يومها: سيوف يوم الترك، وعلى الرغم من أنهم فقدوا كثيراً من أبنائهم إلا أنهم ابتهلوا وابتهجوا لأنهم قتلوا القائد التركي وأعوانه في هذا السهل الذي بنيت عليه القرية: قرية يوم الترك، وقد احتفظوا بختم القائد وعَلَمٍ بنجمة وهلال، وبسجلٍ ضخم قُيِّد فيه الخراج الريفي لعموم فلاحي المنطقة، ومن يومها يُحفظ الختم والسجل والعلم سنة كاملة عند عائلة، لينتقل في حفل كبير إلى عائلة أخرى ليقضي سنة أخرى في حفظها وهلمّ جراً.. ينتقل الختم والسجل والعلم من عائلة إلى أخرى تحت زغاريد النساء العازبات فقط، يمنع على النساء المتزوجات والمطلقات ومن لم تبلغ دوتها الدموية إطلاق أي صوت من زغرودة أو غناء.. وتحت زخات طلقات البارود وصراخ

ختان الأطفال الجماعي.. وروائح المشوي.. يوم الترك وما أدراك ما يوم الترك. في يوم الترك هذا توزع قصاع الكسكسي على الطيور في الغابة وأكياس القمح المستورد.. ويوزع اللحم على الذئاب في الأحراش، ذئاب تملأ المنطقة ثلاثة أيام قبل الاحتفال ولا أحد ينهرها وكأنما تعرف الموعد بحاسة عجيبة، توزع قصاع الكسكسي على الطيور لأنها كما قيل، ساعدت في هزيمة الأتراك إذ غطت الشمس عليهم حتى سقطوا في ظلام دامس في منتصف النهار، وذلك كان سبب هزيمتهم، وسبب مقتل زعيمهم وأعوانه.. وقد سمى الأهل الكسكسي الذي يعطى للطيور: كسكسي أبابيل: دون أن يسأل أحدهم عن معنى هذا الاسم الذي أطلقه أحد المغرمين بكتب المعري.

هذا اليوم يشبه يوم الترك، على الرغم من أننا احتفلنا به منذ أقل من خمسة أشهر.

وإذا جاءهم الخبر.. الجميع يتجمع في سهل، وهي أرض منبطحة ممتدة، فيها ربوة عالية كأنها منصة، كان الحاكم التركي يصعد فوقها كي يخفي قِصَر طوله، وكي يخطب في الناس بلغة عثمانية مليئة بالعربية القرآنية، فيترجم كلامه خمسة مترجمين، كل واحدٍ على شاكلته ثم تذاع في الناس بالعربية والبربرية.. خطبة عن أخبار الله والباب العالي وأخبار الأموال وحاجة الدولة في اسطمبول لترميم المسجد وتحلية ماء البحر الأبيض المتوسط، وصبّه حلواً في الصحراء كي تكبر بلاد الملّة الإسلامية.

هذه الربوة صنعها الفلاحون من حجر جلبوه من منطقة تشرف على الغابة، جلبوه على أكتافهم، بعد أن منع الحاكم التركي استعمال الدواب لهذا الأمر، بحجة العطف على الحيوان التي جاءت في

الإسلام!! قضوا ثلاثة أشهر في تهيئة المنصة، منصة «يوم الترك»!! مرة قال الحاكم القصير القامة، وهو يتفقد أشغال بناء المنصة: عليها أن تكون مثل الأهرام. لكنه فجأة تراجع عن فكرته، وأمر بأن تبنى كما هي الآن: منصة حجرية ترتفع ثلاثة أمتار أو أزيد بقليل عن الأرض المستوية، لها سلم مغطى بالزليج الفاسي إلى جانبها الأيمن، وسلّمٌ من زليج أندلسي رائع وغامض في الوسط من الجهة الخلفية، يصعد الحاكم التركي القصير لأداء الواجب: واجب الخطبة بلغة عربية قرآنية، من الوسط في الجهة الخلفية، ثم ينسحب بعد الانتهاء من الجهة اليمنى نازلاً الزليج الفاسي.

يُركّب الطشقندي جُمَلاً، فتتفكك أخرى بين شفتيه، تنزلق الكلمات، فيسقط منه خيط هول الحكاية، فتكمل أمي وتبدع وهي مقبلة على حالة غريبة، تدخل طقساً عجيباً.

أدرك الآن لماذا فجر البارحة بلغ القلق حده بابن بطوطة وهو يسمع نغمة أذان الفجر. خوفه في محله. لقد أعلم الفقيه الجميع ليلاً بحقيقة زهار. فجاء الناس هائجين، وقد شحذوا سيوفهم التي لم تستعمل منذ يوم الترك، وبعضهم جلب معه حتى بندقيته ذات الصنع البلجيكي.. وجاء الأطفال والنساء جاءت أو جئن.. ونصبت الخيام.. وفتلت قصاع الكسكسي والناس تصرخ والنساء يلطمن وجوههن: العازبات والمتزوجات والمطلقات وغير البالغات.. والفقيه على رأس الربوة في برنوس من وَبَرٍ يقرأ آيات من الذكر الحكيم.. يترنح رأسه المكور يغالب النعاس ودوخة ما دخن البارحة ليلاً.. يقرأ القرآن فيهجم عليه الذباب وتهاجمه حكايات «الروض العاطر في نزهة الخاطر» للشيخ النفزاوي.. النساء ترشه بالعطور، وطفلان أحدهما على اليمين وثان على اليسار ينشان عنه الذباب بمنشتين صينيتين أو

تايوانيتين.. والبنات العاتقات يغنين «طلع البدر علينا» وكأنما هو احتفال بالمولد النبوي.. يغنين وعيونهن على الرجال، الذين عيونهم عليهن. عين على عين، والأحصنة مسرجة ورائحة البارود والنعناع والحشيش أيضاً، تملأ سماء سهل «يوم الترك»!! والناس فرحى، والمأتم والناس فرحى.. لا يعرفون مصدر الغبطة، والفقيه في غيبوبة آياته. يدخل كل لحظة إصبعه ليعود له صوته وتستقيم حبال حنجرته كي يرفع آياته كثيراً كثيراً.. بدأت النساء توزيع كسكسي أبابيل على الطيور في الغابة، العازيات توقفن عن الغناء لحمل قصاع الكسكسي إلى الغابة.. لم يكن طمعهن في أجر!! ولا رحمة بالطيور فهي تعرف أكلها.. كن يرغبن في الذهاب إلى الغابة بحثاً عن ذئب.. ذئب يا ربّ لكل واحدة.. ذئب يوسف يا رب!! حينما سكتت حناجر العازيات عن غناء «طلع البدر علينا» وسكتت البنادر الطنانة التي تُسخّن كل عشرين دقيقة بنظام عجيب، على جمر متوهج تُدوِّر فوقه خرفان تشوى برؤوسها المصوفة.. هناك فتيات لا شغل لهن سوى تسخين البنادر وشدّ خيوطها من العقيق إذا ما ارتخت.. حين سكتت الحناجر والبنادر بدا صوت الفقيه ناشزاً وشاذاً وقد تعرّى داخل الصمت، متعثراً في آيات الذكر الحكيم، وإذ انتبه إلى ذلك بوضوح أدخل إصبعين في جرة العسل وملأ فمه فصفا صوته قليلاً إذ عاد للترتيل، مغيراً القراءة من لحن «شرقي» إلى لحن «مغربي».. حين اكتشف الطفلان اللذان ينشّان الذباب عن وجه الفقيه، اعوجاج صوت الفقيه ونشاز لحنه، ابتسما، لكنهما أبديا ذكاءً عجيباً، إذ أنقذا الموقف، بأن تناسيا نش الذباب، وبدأ الواحد منهما يدفع إصبعه في جرة العسل ثم يدخله في فم الفقيه.. ليلحق به الثاني.. وقد وجد الفقيه في هذه الطريقة راحة له ولحنجرته.. وبالمقابل وجد الطفلان في طريقة

غطس إصبعهيما في جرة العسل ثم في فم الفقيه، فرصة لمصمصتهما من عسل «يوم الترك».

تحت الخيمة الوبرية يجتمع أربابُ الأنحاء، غير مكترثين كثيراً بقراءة الفقيه، الذي فهم من إشارة الطفلين إلى نفاد عسل الجرة، فسكت فجأة وأنهى الترتيل مُمصمصاً إصبع الطفل الواقف إلى اليمين، مغمغماً: «صدق الله العظيم» وإصبع الطفل في عمق فمه.

نزل السلم الزليجي ليلتحق بخيمة أرباب العشائر والأنحاء.. سار وعلى جنبه يسير الطفلان وهما لا يزالان ينشّان الذباب من على وجهه، وقد بدا الفقيه وسط الطفلين بالغ القِصَر، كما أن ارتخاء الكتفين من التعب، ودوخة ما دخن في الليل زادت في قصره الذي لم ينقذه ولم يستره استهلاك جرة كاملة من العسل البلدي، وإذ دخل عليهم سكتوا، أخذ مكانه في الصدارة، وهو منتشٍ باستعادته هيبته ووقاره.. وإذ اشتم رائحة الحشيش في الخيمة، شده حنين إلى سيجارة معالجة جيداً!! فقتل الرغبة بكأس شاي «بالشهيبة»، مُسكر بالعسل الذي اكتشف انه من نوع أفضل وأجود من عسل الجرة الذي مصمصه على آخره. تفقد الحضور، فإذا الجميع هنا.. لم يتكلم، اكتفى بأن أشار بعينيه إلى الذي يحتفظ بالختم والسجل والعلم أن يتقدم إلى جواره، بعد أن أخلى له الجميع مكاناً للجلوس، وتكفل على الفور طفل بمهمة نشّ الذباب عن وجهه في الخارج صوت العازيات يعود ليتسلق أغنية «طلع البدر علينا».. من بين المغنيات واحدة ترفع صوتها بشكل جنوني، جعل الرجال تحت الخيمة ينتبهون إلى ما في صوتها من محنة، إنها تريد الزواج، لا يمكن أن يوجد صوت مقروح بهذه الدرجة إلاّ إذا كان لامراة تريد بعلاً... بعلاً - او بغلاً.. تلك فرصتها لتبيان حالها وهول ما في جسدها، دون أن يسألوا عنها فقد

عرفوهـا، مـن صـهد النـار فـي لسـانها.. وحـين ميزوهـا، عـادوا دون أن يتكلم أحدٌ إلى ما كانوا عليه: شـرب الشـاي المسكّر بالعسـل البلـدي.. رفع الفقيه صوته بآيات الذكر الحكيم، مرتلاً سورة موسـى، فـي حـين تولى الطفل الـذي ينش عنـه الذبـاب رفـع كـأس الشـاي بـين الفينـة والأخرى إلى فم الفقيه ليجرع منها.. إنه يعـرف جيـداً حنجـرة الفقيـه أكثر ممـا يعرفـها الفقيـه نفسـه، فكلمـا ارتخـت خيـوط العقيـق فـي حنجرته يُشربه جرعة من شاي بعسل زائد، فتعود على الفور الحنجرة إلى زنزنتها، يجد الفقيه لذة في القراءة كلما كانت مخلوطة مع غنـاء العازبـات فـي الخـارج، وكـأن بينـه وبينـهن حـوار خـاص.. وكلمـا سـكت الفقيه قليلاً ليأخذ نَفَسَه في رشفة من شـايه، تغتنـم العازبـة المكتوبـة برغبة الزواج هـذه الفرصـة لـترفع صوتـها إلـى السـماء الثامنـة، فـيرد الفقيـه عليـها بـأن يغـيّر لحـن القـراءة والـترتيل مـن «الشـرقـي» إلـى «المغربـي» أو «القـاهـري»، فتفـهم العازبـة لغتـه وتفـهم الواقفـات إلـى جنبها في صف الغناء، والرجال يدخنون دون فهم!!

ينتظر الجميع صلاة العصر، كي ينفّذوا ما اتفقـوا عليـه بشـأن جثة زهـار، التي أخرجوها من المسجد ووضعوها أسفل السلم الزليجي الأندلسي لمنصة سهل «يوم الترك»، وطلب الفقيـه مـن النسـاء تطـهير أرضيـة المسـجد وجدرانـه بالمـاء والصـابون والجـافيل ونفـض الحصـير سبع مرات ليؤدي طقوسه.

فـي الخـارج الطشـقندي يحكـي ويبكـي عنـد عتبـة بابنـا وبغلتـه، سبحان الله، تبكي أيضـاً كسـيدها.. الطشـقندي يريـد أن يكسـر بـاب حوشـنا بدموعـه وبكائـه.. أشـعر أن البـابـ يُخلـع مـن مفاصلـه، وتُخلـع مفـاصلي أنـا أيضـاً.. أتمنـى أنّ يحـدث مـا أفكـر فيـه الآن، أتمنـى أن يقتلنـي، أن يشـربني السّمَّ فـي كـأس خاصـة أحضرهـا مـن بـلاد لـم

يعرفها ابن بطوطة.. كأس بعروتين أو ثلاث مليئة برسومات شياطين وحيوانات خرافية وأشجار وملائكة عيونهم وأجسادهم مثيرة للرغبة أكثر ما هي مثيرة للإيمان والخشوع.

النهار حار.. وأحد الرجال يغيّر كل عشرين دقيقة قطع الثلج الكبيرة من على بطن جثة زهار، حتى لا تنفجر من شدة حرّ هذه الشمس.. كل عشرين دقيقة تُحضِر النساء باكيات قفة من الحلفاء مليئة بالثلج، فيُكشَف على زهار فيغطى كالسمك في صناديقه بالثلج، كان الرجل الذي تكفّل بالمهمة هو نفسه الرجل الذي قطع الجلدة الزائدة على رأس العضو الجنسي للطشقندي.. هو بلحمه ودمه: حلاق ومطهّر ومشذّب حوافر الأحصنة والبغال.. كان هذا السيد الذي بدا مخيفاً والذي تكفّل بمهمة وضع الثلج على بطن جثة زهار لا ينسى قبل أن يرد الغطاء على الجثة بعد أن يغير قطع ثلجها، أن يسحب قطعة كبيرة من عليها، ليمسح بها وجهه وعنقه وليربطها بخرقة كتان على رقبته ليتركها تذوب بهدوء ناعم.. كان فرحاً بهذه المتعة التي اكتشفها.

الناس تبكي وتغني وتصلي..

النهار يقترب من وقت العصر.. نظر الفقيه إلى الظل الممتد أمامه، ظلُّ قامته ثم ظِلُّ واجهة المسجد، إنه يعرف الوقت جيداً، خاصة أيام رمضان، من خلال امتداد وتقلص هذين الظلّين: ظله وظل المسجد.

وإذ رفع الفقيه صوته مرتلاً آيات من سورة «موسى»، بعد أن دفع بإصبعين من عسل في فمه، أدرك الجميع أن الوقت حان، وأسرع الطفلان إلى منشّتيهما ليحركاها على جنبي الفقيه الذي عاد إلى

منصة «يوم الترك». سكتت العازبات عن الغناء، فحزن صوت الفقيه لسكوت صوت المقروحة، وغرق ترتيله في لحن حزين وهو يقرأ سورة سيدنا موسى عليه السلام، حتى انفجرت واحدة بالبكاء، إذ ألقي بالرضيع في البحر، فتبعتها الأخريات باكيات نادبات.. وانفجر الفقيه هو الآخر بالبكاء، وكأنما لم يسبق له أن قرأ هذه السورة من قبل.

وقف الفقيه دون أن يتوقف عن الترتيل، ودون أن يجفف دمعه، نظر إلى ظله الذي بدأ ينسحب خلفه، ثم سكت عن الترتيل وقد نسي حتى «صدق الله العظيم».

أذّن في الجميع، فاجتمع خلفه خلق كبير، في رمشة عين، وكأنما يستعجلون أمر زهار، الذي عاد الرجل فغيّر الثلج عنه مرة أخرى، دون أن ينسى ربط تلك القطعة الكبيرة على رقبته.

وإذ انتهت الصلاة التي كانت سريعة، صلاة الرجال وحدهم، النساء لم يصلين، ولم يفكّرن في ذلك أصلاً، لأنهن لم يفهمن هل هي صلاة جنازة أم صلاة العصر.. بعدها صعد إلى «منصة الترك» رجلان: حطاب ونجار، فركّبا شيئاً يشبه السرير بغطاء، كغطاء التابوت.. وفرشاه بأوراق الخرنوب والدّالية ثم أضافا فوق ذلك جلد تيس أسود مُبرقع بالأبيض، وقبل أن يتقدما لرفع جثة زهار التي أُخرجت من المحمل ووُضعت على باب حديدي بُسط عند أسفل هذه المنصة، أسرع الرجل صاحب الثلج، فغيّر مرة أخرى ثلج الجثة، دون أن ينسى ربط قطعته على رقبته، ثم ساعدهما في رفع جثة زهار لتوضع بهدوء داخل هذا الصندوق أو التابوت أو ما يشبه ذلك.. رُفعت الجثة فارتفعت أصوات العازبات بالغناء.. قبل أن يردّ غطاء الصندوق، قدم رجل ملتحٍ غريب ووضع ورقة على صدر الجثة مكتوب عليها، نصّ فتوى الإعدام «ينفذ فيه حكم الإعدام»!!.

أركبوا الجثة حماراً، بعد أن وضعوا التابوت في عين الخرج اليمني، والعين الثانية ملئت قطع ثلج مغطاة بأكياس الدقيق المصنوعة من القنّب، في حين تُرك التابوت أو الصندوق عارياً، أمام الطيور التي استأنست ببرودة تنبعث في هذا القر من على ظهر الحمار، الذي تقدم الموكب في اتجاه الشمال.. دون أن يدله على سبيله أحد.. وخلفه سار الرجال صامتين.. يجرون أقدامهم خلف حوافر الحمار القبرصي الذي بدا متعباً. لولا أن برودة ظهره أنقذته لسقط تحت لهيب هذه الشمس المحرقة.

يزحف الموكب نحو الشمال، والفقيه يقول: هاهو هواء البحر المنعش بدأ يهب.. يلقانا.

يغير الرجل ثلج التابوت، دون أن ينسى رقبته.

تغير العاشقة الأغنية في حنجرتها، فيرتفع صوتها بأغنية بربرية حزينة، وقد كشفت عن حرقتها، حتى بكى الفقيه بدمع حقيقي اضطر الطفلين إلى تجفيفه خفية.

صاح الأطفال في الأول: - هاهو البحر.. هاهو البحر.

يبدو أن البحر ترك مكانه واندفع إلى الشاطئ أكثر ليلقى الموكب، أدرك الرجال ذلك، فاندهشوا وسكنهم خوف غريب، بعد أن تيقنوا بأن البحر خان شواطئه فأكلها، وكأنما يستعجل الساعة التي يرحل فيها بتابوت زهار، عاد الفقيه إلى قراءة سورة «موسى»، ولأول مرة شعر بندم أو شيء يشبه الذنب أو الخوف أو الحزن.. كانت قراءته هادئة، وقد بدأت الشمس تفقد قوة لهيبها وهي نازلة بسرعة على البحر وكأنما هي ساقطة بعد أن فلتت من السماء التي عليها علقت. رغبة جامحة إلى القراءة تجتاحُ قلب الفقيه.. الذي سكنه

اللحظةَ إحساسٌ شاعر.. البرودة التي بدأت تدغدغ جسده من تحت لباسه الصوفي الخشن جعلته يتوقف عن الترتيل وأكْل العسل. وبمجرد أن توقف صوته تقدم الحطاب والنجار والحلاق الذي هو ذاك المنشغل بتغيير قطع الثلج، والذي نسي مهمته بمجرد أن واجه البحر، وأدرك ربما أكثر من غيره أن البحر غيّر مكانه وانه لقي الموكب على مسافة تزيد عن خمسة كلمترات.

تلك علامة الساعة أو الطوفان الثاني!!

بحر يمشي!!

البارحة كان في مكانه هناك.

تلك علامة الساعة أو الطوفان الثاني!!

أنزل ثلاثتهم التابوت من عين الخرج اليمنى!!

ارتفعت أصوات النساء، وفوق كل هذه الأصوات كان بارزاً، مشتعلاً ومنكسراً صوت المرأة ملتاعة القلب.

دون أن يلتفت الثلاثة إلى وجه الفقيه الذي بدا عليه إحساسٌ غريب، مزيج ما بين الخوف والحنان والشك والتردد.. إحساسٌ لا هو هزيمة ولا هو انتصار.. اندفعوا بالجثة في اتجاه الموج الذي ما عاد موجاً، بمجرد أن وضعوا أقدامهم في الماء.

بحر يموت!! صار إلبحر كإناء ماء هادئ، دون رغوة أو جبال ماء.. اندفعوا أكثر.. أحسوا أن البحر يساعدهم على الاندفاع أكثر فأكثر.

الرجال يندفعون حاملين الجثة إلى أعماق البحر، والبحر من خلفهم ينسحب من على الشواطئ، عائداً إلى مكانه.. وإذ ابتعدوا في

الماء كثيراً، أشار لهم الفقيه إشارة بيده، خوفاً عليهم من غواية البحر.. تركوا الجثة في تابوتها على الماء وعادوا.

سحب الماء الجثة على الفور إلى الداخل.. وتراجع البحر عن الأرض التي سلّمها مرة أخرى لليابسة بعد أن أخذ التابوت.

الشمس هي الأخرى ركعت.. نزلت على الماء في آخر الماء بعد أن تركت مكانها الذي تعلق فيه في السماء، وكأنما تنتظر هي الأخرى التابوت في أقصى نقطة في البحر.

على اليابسة يبست حناجر النساء.

يبست شجرات الغناء في الحلوق التي شعرت برغبة في ماء بارد.

فقدت العاشقة لوعتها الرائعة

نزل الليل على الخلق

ركب الفقيه الحمار الذي جاء بالجثة وعاد إلى القرية نائماً..

وداعاً يا زهار

وداعاً يا ..

باب الحديث الشريف

أنا «حمامة»!!

الناس تلتقي في هنكونغ أو فرانكفورت أو بيروت أو مالطا، هذه الأخيرة التي لا أعرف منها سوى ذلك الفندق الذي قضينا فيه أربع ليال تعرفنا فيها على إبن بطوطة .

أحببت ابن بطوطة من الليلة الأولى، إنه شاعر تروبادور.. عاشق الكرة الأرضية.. حكايته الجميلة والساحرة تلك الليلة، عن شارل كينت الذي سلّم الجزيرة لفرسان القدس، أعني جزيرة مالطا، هي التي هيّجت قلبي وفتحت فيه إمكانية الرغبة في الغرق.

لولا العهد بيني وبين زهار، لكنت تركته على الفور ودخلت في حكاية من حكايات ابن بطوطة، التي بدت لي أكثر إغراء من حكايات «طوق الحمامة».. في حكايات ابن بطوطة لا بطل سواه.. رجلٌ يحب الجغرافيا ويحب أنواع المأكولات وأنواع العطور والبخور والنساء والديانات الوثنية الرائعة، ويحب اللغات حتى وإن كان لا يفهمها، كان يهيم في الأسواق خلف لغات بإيقاعات عجيبة.. تسحره الموسيقى ومقاطع الكلام المثيرة، فيتعلمها في ثلاثة أيام!! سبحان الله.. كان ابن

بطوطة يحب الكذب أيضاً الذي يجعلنا نتحرر من قبة السماء الخانقة فوق رؤوسنا.

كنت أريد أن أتخذ حكاية من حكاياته أرجوحة أركبها لأطير كطفلة مندهشة لأول مرة في التحليق.

كنت أريد أن أحلّق فوق جغرافيا الحكايات حتى آخر الدنيا.. كي أعود إلى أولها!!

يا حمامة لا أول ولا آخر؟!

هاهو أمامي فاتحاً عينيه في السماء التي خانته في زهار.. كأنما يبحث عن رأس الخيط في حكاية اختلطت عليه مصائر الناس فيها.. تختلط البدايات بالنهايات.

كان حزيناً، على صديق ضيّعه، فرمتْ به القرية في البحر على صدره «فتوى»، بعنق مجزوزة.

كان حزيناً أو عميقاً أكثر مني.

رفقة سفر وحياة مشتركة. كان زهار رائعاً، يحيى متكئاً على قلبه، كان حين يسكر قليلاً، ويحدث هذا نادراً، لأن زهار يحب شرب «البوخا»، و«البوخا» في تونس والوصول إلى تونس ليس يسيراً.. حين تأخذه نشوة «البوخا» يفتح «طوق الحمامة» ليبكي لذكرى الحلبية، وفي الصباح يطلب مني السماح.. أسامحه وأعرف أن قلبه في قلعة حلب، مثلي زهار لم يكن يعرف بداية الحكاية ولا نهايتها، مثلي كان لا يعرف من أين تبدأ الأرض.. من أين بدأت.. على الرغم من انه كان حين يسكر يفتح قلبه أكثر كنتُ أحبّ هذه اللحظات التي ينتشي فيها، فيستعيد الحلبية على الرغم من مأساويتها:

«الميت لا يثير الغيرة»

كان يغني أغنيات صباح فخري فيبكي.. ثم يسحبُ صوته من بكائه ويقول: لقد قتلوها لأنهم رفضوا زواجها من غير ملّتها.. لقد اغتالوا أجمل الأغنيات الأندلسية في قلبها الرقيق، وسفدوا النور في لحنها وفي أوتار عودها.

كنتُ أشعر أنه لم يجد فيّ نقطة ارتكازه، لقد وجد فيّ نُسخة أخرى منه، فكلانا معلق في غيمة، أما الحلبية فكانت جذورها في «القلعة» بمنجنيقها وأسوارها وأسرارها، وفي رنّة «العود» الذي هو أساس كل اتزان الأرض في حلب.

مثله أنا ابنة الريح وما تنشره من غبار.. ابنة الحكايات العجيبة الساحرة في مأساة أبطالها، كل الناس تحب الحكاية ولكن لا أحد يعرفه كيف تنبت في الأوراق وفي القلوب.

أنظر الآن إلى ابن بطوطة حاملاً «مدوناته» و«دواته» وقلم قصب، يفكر دون شك في أمر أساسي: من صنع الحكاية: الناس أم الأوراق أم الجغرافية؟

الذي صنع الله صنع الحكاية

الليل عنيف.. ظلام أسود لم يسبق لي أن رأيته بكل هذه الدكنة، لأول مرة أدرك معنى «السواد» المرتبط في راس الأطفال بالليل.. هذا هو الليل!!

ذئب يعوي هناك أم في قلبي؟!

- أنذهب حيث اتجه الموكب لنعرف ما فعل الفاعلون بجثة زهار.. أم نرحل بجثتنا في اتجاه آخر.. نؤجلها لموت ولبحر آخر.. نؤجلها بعض الوقت.

ذئب يعوي!

القرية فاضت بالخلق، جاؤوا من كل جهة، التحق من لم يلحق بالموكب، ليسمع الأخبار، وقد اجتمعوا في أسفل منصة الترك وأناروا المكان بأزيد من ثلاثين قنديلاً كبريتياً ناره صفراء ولهبه مائل إلى الاخضرار، اجتمعوا لتدارس الوضع بعد التخلص من جثة زهار.

قال لي ابن بطوطة: علينا أن نخرج من القرية، أن نرحل، ففي اجتماع «سهل يوم الترك» أمر ينبئ بالسوء.

خوف الخروج بتستر وسرية أعاد لي صورة أبي هيثم وهو ينفض حقائبي وجيوبي من العملة المحلّية ويسحب من إصبعي خاتم ذهب ويضحك.. كنت مستعدة أن أمنحه كل شيء مقابل أن أخرج، أن أغادر البلد.. في مثل هذه اللحظات نحتاج إلى أبي هيثم الذي تركته على مرفأ طرطوس.. يملأ البواخر بشراً ويستقبل كارطونات السجائر الأمريكية والويسكي المالطي.

حين بان الخوف على ملامح ابن بطوطة من مغبة ضياع مؤلفه وأوراقه، شعرت بأننا لن نعود.

السفر لم يعد يخيف، ولم يُجفل ابن بطوطة يوماً، وهو الذي وزّع حياته أياماً وشهوراً وساعات ودقائق على البلادات والمرافئ والصحارى والمدن والقرى والفنادق.. أنا أيضاً لا يخيفني السفر لأنني لا أعرف هل أنني مسافرة أم أنني عائدة إلى مكان هو مكاني الأصلي.. كلما وجدت نفسي في رحيل، في حافلة أو قطار أو طائرة، أقول بمجرد أن أنزل المركوب هذه الطريق تشبه طريقاً في ذاكرتي تؤدي إلى منبطح كنا نلعب فيه حين كنا أطفالاً.. أين هو المنبطح؟ أين

هم الأطفال الذين لعبت معهم؟ أين اللعب؟ واللُّعَبُ أين هـي؟ وَهـمٌ كل هذا الذي في الرأس الدائخة.

في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه الذي سار فيه الموكب بجثة زهـار، أشعر أنني أنزل المنحدر الذي يؤدي إلى تلك الساحة حيث الأطفال.. حيث أحدهم يعتدي على آخر أصغر منه.. خصامات وشتم ولعبٌ وكلام وقح عسلي!!

ذاكرة كاذبة تعذبني.

ذاكرة لا جغرافية لها تعذبني.

حملت «طوق الحمامة» وسرتُ.

لأول مرة فكرت في الاسم الحقيقي لزهار: يا ترى ما اسمه؟ لقد حمله معه سراً؟ عاد به في البحر الذي رماه؟! لم أتجرأ مرة واحدة أن أفاتحه في اسمه الحقيقي، كما أنه هو لم يطلب مني اسمي الحقيقي، أنا متيقنة أن ابن بطوطة يعرف الاسم الحقيقي لزهار، فهو رجل لا يخفى عليه خافٍ، رجل الجغرافيا والحكايا.

كنا ننسحب من القرية، وكأنني أنزل في ذلك المنحدر الذي يوصلني إلى تلك البطحة التي كنا نلعب فيها صغاراً. هل كبرنا؟!.. لكن الحارة أو الرحبة كانت تهرب مني، تنسحب إلى الخلف وأنا من خلفها أتقدم في المنحدر، فإذا نحن أمام البحر.

بحر: لا شيء سوى الماء فوق الماء تحته ماءٌ، وصوت انكسارات الأمواج على صخر الشاطئ، وبعض الطيور الليلية على الرغم من سوادها فإنها كانت مميزة جداً في ظلام هذا الليل.. لا أثر للتابوت. أدرك ابن بطوطة ومثله أدركت أنا أيضاً أن القوم رموا بجثة زهار في

البحر.. كما نرمي نحن بأنفسنا في لجة هذا البرّ.. ما هو الأصعب: موج البحر أم موج البر؟ كلانا يا زهار يصارع موجه ومرارته!

حدق ابن بطوطة جيداً في موج البحر ثم بكى.. لأول مرة أرى رجلاً يبكي.. زهار حينما كان يحن إلى الحلبية لم يكن يبكي، كان يغني ويهذي ويشهق فتسكنه حمى فينام، ليُرّكب جُمَلاً في الصباح يطلب مني السماح!!.. سبحانك يا الله العظيم، لا فرق بين بكاء الرجال وبكاء الأطفال.. يبكي ويضرب برجليه رمل الشاطئ. خفت أن يجنّ، فعانقته، كان جسده بارداً، سقط بين ذراعي وقد انهار كالجبل الذي لا ينهار.

تجلّدت كثيراً، إذ انهار هو كثيراً، كابرتُ، عاندتُ قاومت طوبة مالحة في الحلق كادت تخنقني.

قلت له: لقد نزل البرد؟

جملة لا معنى لها، جامدة، جثة كلام، عليّ أن أنتظر قليلاً حتى يفرغ قلبه، يبكي كثيراً، كي نستعد لرحيل آخر.. أو عودة أخرى؟

هو يبكي وأنا أبحث عن مدينة أريدها. رجل الجغرافيا أمامي وأنا حائرة أمام حيرة الاتجاه وتقاطع الأماكن. أبحث عن مدينة أريد أن أصنع لها أبواباً وناساً وشوارع ومدارس وأطفالاً، وأصنع لغة، وديناً وأصنع لها إلهاً يحميها من الموت والبراكين والفتنة والطوفان والرحيل.. أبحث عن مدينة تشبه غرناطة أو قرطبة أو سمرقند أو سجلماسة.. كل المدن مخيفة ما دامت غرناطة وإشبيلية خدعت ابن حزم بالمنفى والسجن، وهو الرجل القلم الذي طلّق المناصب والسياسة وهام في الكتابة وقصص الحب والجنون والشعر والوساوس.

لا يصنع التاريخ الكبير سوى وسواس كبير!!

كان ابن بطوطة يبكي وأنا أشعر بالراحة.. وكأنما كان يبكي نيابة عني. كان يحدق في البحر وقد بدأ يهذي بصوت مرتفع، وجسده يهتز في ارتجافات عنيفة، مما جعلني أقلق عليه، وأبحث بسرعة عن طريق يؤدي إلى منحدر حيث الأطفال في نهايته يلعبون الكرة في الذاكرة. بدا البحر منحدراً فائضاً. نغرق فيه لنجد اللذة الكبرى.. السماء الثامنة.. اللذة التي وجدها زهار وهو يسلّم ما تبقى من جسده الذي ذوّبته الحلبية في موسيقاها وغناها ورسائلها التي كنت أقرأها خفية عنه -لقد جمع رسائلها بعناية في صندوق، كان لا يفتحه إلا يوم الخميس عصراً- دون أن اكتشف سرّ اسمها أو اسمه، وكأن الحلبية كانت تعرف أن هذا اليوم سيجيء حيث سأقرأ رسائلها، لذلك لم تكن تذكر اسمه، بل كانت في كل رسالة تطلق عليه اسم طائر: طائر حقيقي أو طائر من طيور الجنة. كانت تفعل ذلك حتى لا يُكتشف سرُّها وقد جندت المدينة عسساً عليها وضعوهم حتى في البريد، يقرأون الرسائل وإذا ما استعصى عليهم رمز أو لغز في الفك جنّدوا له جيشاً من المفسرين: مفسرو الأحلام وقارئو النجوم والكفوف والفناجين والرمل وأوراق النرد والسحرة.

كان ابن بطوطة يقتحم البحر، حتى غمر الماء ركبتيه، وهو يصرخ:

- هاهو طير أوغندي فَرَدَ جناحيه.. وهو يصلي بلغة حميرية قديمة، يصلي أو يغني وقد استعار من زرياب صوته القادم من بغداد والمقيم في قرطبة.. هاهو زرياب يرفع بين جناحيه تابوت زهار، إنه يصعد به عالياً عالياً.. سيأخذه إلى قرطبة أو مكناس أو وهران ليحط به خلف حوريات الأوبرا. فلوهران حورياتها وحيّها وبحرها الذي سجن سرفنتيس.

وإذ حوّم زريابُ عالياً رافعاً بين جناحيه التابوت تبعه سرب من الطيور الغريبة، كانت تطلق نوراً من عيونها، وكأنما خرجت للتو من كتاب «منطق الطير» لفريد العطار.

انتبهت فإذا ابن بطوطة قد عاد إليه هدوؤه، وإذا النهار قد طلع، أو أن ضوء طيور فريد العطار قد غمر الأنحاء والبحر والطريق الذي سنسلكه.

قمنا فمشينا، لم يكن صعباً علينا أن نختار الطريق، لأن الطريق هي التي اختارتنا. تلك مهمة الطيور لا مهمتنا.

الآن انتبه إلى شيء غريب: لماذا لم يتكلم ابن حزم عن زرياب؟ إن غيرة كانت تأكل قلبه، وهو الذي دوخ نساء وفتيات قرطبة وسائر الأندلس وبغداد وبلاد الشام.

أشعر بإحساس غريب تجاه زرياب، اختلط عليّ الأمر، هل هو طائر أم إنس.. أنا لا أكتشف الآن زرياب، لقد كان نائماً في قلبي منذ كنت فتاة على قمة جبل النواصير.. ربما كان قد أقام هناك، إنه المكان الوحيد الذي يستطيع منه طائر أن يحرس القدس ودمشق في اللحظة نفسها.. دون شك أقام هناك في طريقه إلى قرطبة قادماً من بغداد.. سحرته قرطبة والقدس على خطوة منه لم تثره.. ابن خلدون هو الآخر جاء القدس فلم يكتب عنها، غادرها حين اكتشف أنها مدينة من وهم، مدينة مؤسسة على أطنان من الكلام وأطنان من المآسي وأشكال الحروب والموت.. رحل عنها إلى دمشق حيث الغوطة والعنب والماء والأسواق والنساء الجميلات المشهيات كتفاح جنة المعري.

نمشي يسبقني تارة وتارة أسبقه، نمشي في اتجاه قد لا نعرفه ولكننا لا نجهله.

أسيرُ هكذا واسمع في أذني هاتفاً يردد بصوت حارّ قول الرسول «مصير الإنسان معلق بين عيني حصان».. رائع هذا التعبير، وجودي وشعري حارٌ ومأساوي. إن مصيرنا بين عيني حصان بجناحين كالبراق.. يطير بنا يقطع المسافات ليرمي بنا ذات وقتٍ على يابسة قد تشبه ما نبحث عنه أو تشبه ما لا يعجبنا.. لكنه الحصان قدرنا.

نركب الحصان الذي قال عنه الرسول ونسلم أنفسنا لقدر بين عينيه وحذوته.

ليلة أخرى!

أعرف أنه لن يجيء، طارت به «حمامة»، هو قدرها.. الدوتشي حين أدرك أن رائحة ابن بطوطة خلا منها المكان، بدأ شعره ينسل، وكأن مرضاً جلدياً خطيراً أصابه، مرضٌ يعود دون شك إلى الحاجة الجنسية.. كل الأمراض الجلدية أساسها جنسي.. لقد قضى حياته على هذا السطح يحلم بكلبة ويسمع أخبار الجغرافيا والناس والأديان والآلهة واللغات، حتى شاخ دون أن يدرك حلمه.. إنه يحمحم، به حمى، اسحبُ غطاءً خشناً أرميه عليه فلا تتوقف حمحمته.

مسكين سيموت.

الطشقندي خلف الباب، جالساً ينظم كلامه في فمه، إذ تختلط عليه لغته الأصلية مع العربية والبربرية.. انتبه إلى أن كلاماً مثل هذا، ساخراً باللغات والمكان، يشبه العسل الذي كان الفقيه يلعقه من الجرة.. عسل وحشي حرّ..

السلم الذي صنعه زوج أختي في مكانه، يذكرني، لست أدري لماذا؟ بتلك السلالم التي تستعمل كي يتسلقها الأطفال نحو السطوح

لمراقبة آذان المغرب، عندما يصومون اول يوم في أول رمضان في حياتهم.. تلك عادة كان الآباء يريدون من ورائها، تعليم الأبناء على أن صيام أول يوم رمضان هو بداية تسلق أدراج السماء في اتجاه العرش الكبير، عرش الله حيث الملائكة والجنة والرسل والأنبياء جالسون يأكلون ويشربون من أنهار الخمر والعسل والسمن ويسمعون الموسيقى والشعر ويشاهدون رقص الراقصات الحوريات ويلمسون نهودهن ويأكلون العنب والرمان والخوخ والكرز وما طاب ولذ.

تعلق المرأة التي كانت تغني لوعتها: سيذهب زهار إلى مصر فرعون، ستحمله الأمواج إلى البحر الأحمر.. هناك سيتلقفه الجن الأحمر، حيث يُشق له قبر في جوف الحوت.

يرتفع صوت الفقيه، الذي اشتاق إلى سيجارة حشيش، بآيات الذكر الحكيم، وقد بدا عليه التعب والإرهاق، وازدادت بحة صوته، والغلامان الواقفان على جنبيه يغالبان النعاس والإرهاق.

قال قائل، غريب السحنة، بلغة قاطعة، حادة:

- علينا أن نرصّ الصف وأن نقاوم ما فسد في العباد بقطع الرؤوس والأيدي والألسنة..

الفقيه يسمع وشهوة سيجارة تحفر قلبه بعنف.

النساء يفكرن في الطشقندي.

- الطشقندي مختون.. يمكنه أن يظهر برهانه بعضوه المقصوص أمام الجميع.. قطع جلدة وارتاح.

الغريب بتشنج زائد:

- أصل بلاء البلاد ابن بطوطة، حلّت على منطقتنا اللعنة يوم

دخلها.. إنه بوذي أو من عبدة الأبقار في الهند هو معجب بهؤلاء الكفار إلى حدّ أنه يفتخر كونه خصص لهم صفحات كثيرة في مدونته.. علينا أن نفتح كل قبورنا ونتأكد من موتانا واحداً واحداً.. وإذا ما كان هناك شك في قبر علينا أن نلم ما بقي من جثته من عظام ونحرقها ونذريها في البحر..

في الخارج الطشقندي يفتح الباب، ألقاه، فرحاً كان إذ أخبرته أن ابن بطوطة وحمامة غادرا القرية.. متأكدة أنه كان يعرف ذلك قبل أن أخبره، لأن الخبر لم يفاجئه. بل إنه علق بهدوء وحزن عميق: حسناً فعلا، فالقلوب اسودّت وعَمِيَتْ.

فجأة أخرجت أمي صوتها عالياً، وهو الصوت الذي دفنتْه منذ وفاة أبي -على كل هو ليس أبي-، تتحدث فتخلط بيني وبين يمامة تارة، وبيني وبين حمامة تارة أخرى، سبحان الله، طار عقلها، أمي في كل هذا الجنون، تبدو لي لأول مرة متحررة من سجن ابن بطوطة ومن مدونته وأقلامه ومحبرته وحكاياته.. ضاع الكلام كله في فمها، وقد أخرجتْ بنديراً (طبلاً) صنعته بيدها وقد صبغته بالحناء، راسمة عليه أشكالاً جميلة غير مفهومة وبعض النجوم الخماسية والسداسية والثمانية وبعض الأهلّة والأسماك.. كانت قبل هذا اليوم تقول وتردد: هذا البندير لن يسخّن إلا يوم عرس «يمامة» ثم غيرت حلمها فكانت تقول: إلا يوم عرس «يامنة».. هاهي أخرجته من كيس خاطته خصيصاً لذلك، وهاهي ترفع صوتها بأغنية تؤكد فيها أن عرس «يامنة». أي عرسي، هذه الليلة، وأنني سأكون مع الحوريات في الجنة أمدّ نهدي للأنبياء والمؤمنين، أمي تغني وتغني، ثم تصرخ: الدود الأزرق.. الدود يأكل عيني.. ينخر أقدامي.

يبكي الطشقندي لحال أمي، فتسيل من عينيه الحكاية التي طالما رواها لأختي وهو يحرك الفنجان العجيب الذي أهداه إليها واضعاً في فمه عود عرق السوس، كأن الكلمات لم تكن تعرف طريقها إلى فمه عربية وبربرية إلا إذا استلذت في فمه طعم عرق السوس، مرة أخرى هاهي الحكاية تسيل: «كان يا ما كان.. الحبق والسوسان.. أميرة صينية لم يخلق الله مثلها في جمال، لم يكن طولها يتجاوز المتر و45 سنتمتراً.. القياسات كانت تؤخذ على طول جذور الأشجار، كانت تسمى عند العامة «كرزة» أو «رمانة» أما أبوها فقد أطلق عليها اسم «شميسة» لما كان للشمس من سلطة إلهية عندهم، لقد اختار لها أبوها سبع خادمات إفريقيات مهمتهن مشط وترتيب سالف الأميرة الذي يبلغ طوله ثلاث مرات طول قامتها.. كان أبوها يطعمها بيده الفستق الإيراني كل مساء ليتمتع برؤية سالفها ممدداً ممشوطاً على زربّية فارسية خصصت لذلك.. أما يوم الجمعة فكان مخصصاً لتشميس السالف في حديقة القصر، وفي هذا اليوم يسمح للرعية برؤيته والدعاء له بالطول أكثر وبالحفظ من كل مكروه ونسل.. ولشدة تعلق الأب بابنته، قيل إنه سقط في عشقها، وأن موت أمها المفاجئ كان سببه خلاف بينهما حول ما رُوّج عن عشقه لشميسة، وأن السلطان أراد أن يستريح من الأم فقتلها كي يخلو له الجوّ بالأميرة.. كانت الأميرة تنام ستة أيام، لتستعد ليوم الجمعة حيث تحمل الإفريقيات سالفها لتدور به في بستان الرمان، إذ كان يعجبها هذا الشجر كثيراً، أكثر من أي شجر آخر، فهو شجر جمع ما بين الوحشية والألفة.. كانت حين ترى شجر الرمان تقول: هذا أبي، فتبتسم الخادمات الأفريقيات، لتنقل للناس قول الأميرة، حتى قيل إن الرجل الذي تعيش في كنفه ليس أباها، إنما وجدها داخل حبة رمان، وأنه

أخفى السرّ عن شعبه بمعيّة زوجته العاقر حتى اعتقد الناس مع مرور الزمن أنها ابنته.. وربما صدق هذه الحكاية، هو سبب غيرة الزوجة من علاقة السلطان بها، فهي وحدها كانت تعرف الحقيقة، كانت الأميرة تحتفل بعيدين، عيد الجلنار وهو يوم تفتّح أول زهرة رمان في بستان «الجمعة»: إذ أن الأميرة تخصص ألف عين لمراقبة براعم أشجار الرمان ليل نهار، ففي الليل تنصب القناديل عالية لتضيء الأشجار، ومع ظهور أول زهرة، يكون العيد وتقام الحفلات، حيث لا تنام الأميرة سبعة أيام متوالية، وفي هذا العيد يتم تزويج الرجل الذي رأىٰ أول زهرة تتفتح بالفتاة التي يرغب فيها، باستثناء الأميرة التي لا تدخل في عداد فتيات المملكة.. وعيد الجلنار هو أكبر عرس في المملكة قاطبة. أما العيد الثاني فهو الذي يصادف سقوط آخر حبة رمان من شجر بستان «الجمعة»، وهو يوم يصوم فيه كل الشعب، إذ يُمنع الأكل والشراب وممارسة الجنس والكلام والنوم ودفن الأموات وقص الحبال السرية للمواليد في سائر تراب المملكة، وفيها يتم جلد الرجل الذي رأى سقوط حبة الرمان خمسين جلدة في الساحة العمومية، قبل الاحتفال به وإلحاقه مستشاراً في أروقة القصر الملكي.. كانت الأميرة شميسة لا تنام ليلة سقوط آخر حبة رمان، تقضي ليلها باكية حتى تتقرّح عيناها وتمتلئا، بخيوط حمراء.. كانت تشعر بمتعة كبيرة حيال هذا العذاب، وكان بكاؤها يُسمع في كل أرض المملكة.. كل الناس تنتظر بكاءها، لم يكن الناس يفرقون بين البكاء والغناء في صوتها المصبوب من حناجر البلابل والكناري والخطاطيف والسنونوات والهزارات والزرازير التي تحب كثيراً حب الزيتون.

أغلق الأب على نفسه في غرفة مظلمة ثلاثة عشر يوماً عازماً أن يجد شيئاً يضمن إمارة وسلطنة ابنته من بعده، وهو الذي بدأ

يشعر بركبتيه تخونانه، وباهتزاز في أسفل بطنه يخفيه عن العامة ومستشاريه قدر ما يستطيع، وبدأ وجه زوجته التي قتلها يلاحقه في أروقة القصر وفي الصالونات وفي السرير يريد أن يخنقه بذات الطريقة التي استعملها معها.. سكنت الحمى جسده طوال فترة العزلة، وفي عشية اليوم الثالث عشر خرج فوجد الأميرة عند الباب واقفة وقد قصّت سالفها على آخره، من منبت الشعر، حزناً عليه، بعد أن اعتقدت أنه مات في غرفته، وهو ما حاول مستشاروها الإيحاء به إليها دون تصريح معلن، وبمجرد أن شاهد «شميسة» دون سالف، فقد بصره ولسانه على الفور وازدادت رجفة أسفل البطن لتشمل الجسد كله، ودخل في غيبوبة، فكان لا يأكل إلا عشرين حبة أرز في الصباح ومثلها في موعدي الغداء والعشاء، وملعقة عسل في الفطور ومثلها قبل النوم، حتى نحل جسده فصار هيكلاً عظمياً، وقد حزنت «شميسة» لحاله كثيراً، وظلت تفكر في شيء يمكنّه أن يعوض اباها ذلك السالف الطويل، وإذ كانت جالسة ذات يوم صهد إلى ظل شجرة توت عتيقة وسط فناء القصر، سقطت شرنقة صغيرة في كأس شايها، فتناولتها وسحبت منها خيطاً فصار اطول فأطول، فكانت الحركة السحرية في التاريخ، فولد الحرير، ولتوها أسرعت لجمع الشرنقات، فأخذت تضع خيوطاً حريرية طويلة ناعمة لتربطها مكان سالفها، ثم أسرعت إلى أبيها فتناولت يده ووضعتها على سالف خيوط الحرير التي اعتقد أنها سالفها الذي قصته قد عاد إليها، فابتسم للتو، وعاد له بصره، وتوقف الجسد عن رجفته، واحتفلت المملكة تلك الليلة بعيد الحرير وهو ثالث الأعياد في المملكة، ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن يعتقد سكان هذه الأرض أن أصل الحرير سالف الأميرة.. ومن يومها ازدادت المملكة غنى وثروة بأن نشطت

فيها تجارة الحرير وزراعة شجر التوت ودود القز، وبالمقابل ازداد إيمان الناس بالرمان حتى أضحى لا يؤكل بل يعبد ويغرس خاصة في أضرحة الملوك ومقابر الأسر العظيمة.

عادت للملك قوته، وعادت للأميرة آلاف البساتين لتربية دود الحرير، وقد أنشأت جوقاً موسيقياً يعزف طوال السنة دون انقطاع في تلك البساتين اعتقاداً منها أن البهجة هي وحدها الكفيلة بزيادة إنتاج الحرير، وأن الموسيقى هي مصدر البهجة الكبرى، بهجة دود القز، وبهجة الجنة، بهجة العالم الآخر..»

أمي لا تزال تضرب على جلد البندير المحنى وتغني بالعربية والبربرية بصوت محروق، وكأنما استعارت حنجرتها وحبال صوتها من تلك العاشقة التي أبكت الفقيه بغنائها في «الصف»: «طلع البدر علينا».

أمي تغني وأنا أنظر إلى الطشقندي حيث تسيل الحكاية من فمه دون أن يتكلم.. أولا إنه لا يعرف الكلام.. الحكايات قد لا تحكى.. لست أدري من كان يحكي الحكاية أنا أم هو.

فجأة امتلأ حوشنا بخلق كثير، حتى فاض الفناء، وأمي لا تزال في غنائها وطبلها.. النساء قليلات، بعضهن كن يبكين. ربما على حال أمي، تناولت إحداهن البندير منها، بل سحبته من يدها بعنف، بعد أن لاحظت أن إصبعها الداخل في ثقب دائرة البندير اللوحية يسيل منه الدم.

بهدوء وشرر اقترب مني الغرباء، كانوا بلحى مثيرة، صامتين، عيون كثيرة تتبع خطواتي، لم أشعر بالخوف، كنت أحاول أن أطمئن نفسي بأن عدد العيون ليس أزيد من ضِعفَي عدد البشر، لكن

الحقيقة غير ذلك، فعدد العيون أكثر بكثير من هذين الضعفَين. كل واحد من الحاضرين جاء بعينيه وبعيون الآخرين الذين تعذّر عليهم المجيء.. لقد استعار منهم العيون كي يراني جيداً، كي يلتهم أجزائي بدقة وتفصيل.

كل شيء كان حاضراً.

أمي تغني والمرأة الواقفة أمامها تطبل.. انسحبت النساء من فناء الحوش، وإذ رفع الفقيه صوته بالترتيل سكت الطبل ولم تسكت أمي عن غنائها.. أشعل الغرباء النار في حطب أحضروه خصيصاً على ظهور خمسة أحمرة قبرصية يتقدمها الحمار الذي ذهب بجثة زهار وعاد بجسد الفقيه الذي أرهقه الترتيل كثيراً وعذبته محنة المرأة العاشقة.

ينظر الفقيه إلى أمي والكلب ينظر إلى الفقيه، يبكي الدوتشي وقد ازدادت حمحمته، تضيع من الفقيه آياته فيستدرك ذلك بأن يعوض ما ضاع بآيات أخرى أو حتى بأبيات شعرية حفظها من حماسة أبي تمام ومن ديوان أبي نواس الذي لم يكن يخفي حبه له، ويعتبره فقيهاً وإماماً ظَلَمَهُ التاريخ. أمر الرجال الغامضون النساء الواقفات اللواتي سُمِح لهن بالدخول إلى الحوش أن يتقدمن.. تناولنني من يدي ثم غبن بي داخل الغرفة التي كنا نبيت فيها: حمامة وابن أختي البكر وأنا.. كنت أبحث عن ابن أختي.. لا أثر له، جردنني من ثيابي ثم صبت عليّ واحدة سطل ماء دافئ دون أن تبادلني كلاماً، أما الثانية فقد غلبها البكاء، فانسحبتُ إلى عتبة الباب المغلوقة، وتركتْ للأخرى مهمة طهارتي، كانت تصب الماء وتردد سورة الفاتحة التي لا تحفظها، ترددها متتبعة صوت رجل يقرأها جهراً في الخارج.

لم يطل بي الموقف، إذ أُخرجتُ من الغرفة بعد أن بُدّلت ثيابي، إذ لُفَّ جسدي في إزار أبيض، وشعري في منديل أبيض أيضاً. حافية كنت، فالأرض طاهرة!! استلمني منها الذي كان يقرأ الفاتحة جهراً، ثم قادني إلى خارج الحوش، كان الفقيه لا يزال يقرأ آياته وقد وضع يده على أذنه اليمنى فغطى كل حنكه. ثم ألقوا بي في النار الموقدة، فرحين كانوا. صرختُ: أمي.. لكن أمي لم تسمعني، كان صوتها يرن في أذني.. إنه يوم ابنتها.

كان الدوتشي يسلم الروح مبدلاً نباحه بصهيل حصان،

وكانت أمي تقول صارخة في القوم:

- إنها ليست «حمامة».. إنها ليست «زهار»

لكنهم رحلوا وتركوا النار!!

باب عبد القادر

.. ودخلنا المدينة

يتبعني تارة وأسير خلفه أخرى.

لوهران طعم آخر، رائحة شباك الحواتين أو جبنة «كامبير» المعز.

مدينة كالقصيدة المتعبة.

يحاصرها العسكر.. دبابات على الأبواب: باب تلمسان وباب المرسى وباب أرزيو وباب مستغانم وباب معسكر.

غابات، غابة مسيلة وغابة السباع، وغابة المطار محروقة الجناح.. لا طير في شجر.. لا شجر لطير.

رمادٌ وحنين.

ماء مقطوع. لعنة السماء التي هربت بغيمها تاركة المدينة بلا سماء ولا إله ولا حكاية.

رصاصٌ مشتت، موزع في جعب المسدسات والبنادق وماشينات الموت وفي الأجساد والقلوب وفي الأحلام.

أطفال إناث وذكور، حديثو المولد، يُرمَون مع الزبالة في أكياس نايلون رديئة.

صفارات إنذار، صوت مكابح السيارات، جعجعة العجلات على الإسفلت وعند زوايا الشوارع الضيقة المخيفة المظلمة.

جثة شاب على الرصيف: أزيَد من سبعين بالمائة من أبناء هذا البلد من الشباب.

قوة الموت وعنف الحياة.

جثة شاب آخر ليس على الرصيف، إنها وسط الشارع: لا يهم أزيَد من سبعين بالمائة من أبناء هذا البلد الشاب من الشباب.

قامة شاب آخر في المرمى. وجثة دون رأس.

وآخر في مرمى القنّاص.

وعنق تحت السكين.

وهران قصيدة متعبة أو حزينة.

البحر في شمالها كما علمتني الجغرافية التي تحدثتْ عن جميلة بوحيرد ومحاميها جاك فيرجيس.

هكذا كنت أتصور البحر في هذه المدينة، هو الوحيد الذي لم يخني، البحر لا يغير مكانه على الرغم من أنه يغير ماءه.

حين تدخل المدينة، عليك أن تبحث عن تمثال الأمير عبد القادر. مثل الجميع بحثت عن الأمير، هل هو حنين إلى معسكر أم حنين إلى الشام أم هو حنين إلى زهار.

قال ابن بطوطة وهو منتش في البحث في سفر الجغرافيا:

- سنذهب في هذا الشارع، فالأمير لا يكون إلا في مركز الساحة الرئيسية وسط المدينة.

وسط المدينة في مرمى القناص القبيح.

بيرة بماء مالح وخميرة مفشوشة.

صباح مدينة كمسائها، غموض الوقت، بهجة الشوارع مسلولة، جرأة النساء الوهرانيات مقلمة.

- مدينة كانت تخيف، هاهي خائفة: يحكى أن لالّة زهرة بنت دوخت وهي أم الأمير عبد القادر حين قررت إرسال ابنها للدراسة، كانت وهران تخيفها، مدينة الغواية والهاوية!! فأرسلته إلى مدينة أرزيو كي لا تبلعه وهران.. معك الحق يا لأَلّة زهرة، فوهران مدينة لا يقاوَم إغراؤها. وحين دخلها الأمير عبد القادر شاباً أول ما سحره جلسات الموسيقى الأندلسية.

أعتقد -وقد شاركني ابن بطوطة في هذا الراي- أن الذي اقترح نصب تمثال الأمير في هذا المكان كان يعرف جيداً، أنه يريد أن يطل على ذلك المكان حيث كانت تصعد الموسيقى الأندلسية: لكِ التحيات يا رينات الوهرانية ويا مايسترو مديوني ويا ليلي بونيس وحيث الداليات وأعناق النساء ورائحة الحمام و«البوخة» و«الماحية» والأكلات التقليدية التي يدخلها الحمص كثيراً.

قال ابن بطوطة وقد أدرك عمق تعلقي بتمثال الأمير:

- هل تدرين يا حمامة أن تمثال الأمير في الجزائر العاصمة نُصب على ذات المنصة التي كان عليها تمثال بيجو.

مهزلة التاريخ.

يضحك التاريخ منا أم نضحك منه!!

لم تكن تهمني كثيراً تعليقات ابن بطوطة السياسية، فهي تشبه خطب زعماء الحركات الفلسطينية.

على ابن بطوطة أن يتحدث في الجغرافيا ويسكت في التاريخ.

ما كان على النحات أن يحفر اتساع العينين بهذا الشكل، يبدو أنه نسي الأمير فأخذ بالحصان الذي ظهر أكثر وأكبر واعظم فوق ظهره.. أما الآية القرآنية فقد أضيفت في آخر لحظة، بخط مخلوط ومغلوط بين الفارسي والنسخ والأندلسي، إن الذي اقترح إضافة هذه الآية التي تمجد الموت، كان يفكر في الفتوى التي حملها زهار على جثته برأس مفصوله عن الجسد.

أبحث عن شيء في عيني عبد القادر، الذي بدا في رخامه مأخوذاً ببناية الأوبرا (المسرح) التي لا تبعد عن أقدام حصانه أكثر من مائة متر، والتي بدأت تتآكل على الرغم من أن حورياتها لا تزال قائمة في بهرجها وعتاقتها التي زادتها غواية.

الأمير عبد القادر في رخامه ورصاصه، على الرغم مما تطلقه مدخنات الحافلات على وجهه من دخان وسخم أسود، إلاّ أنه وفي وقفته وامتشاقته وكأنه يؤدي دوراً في مسرحية شعرية لصلاح عبد الصبور أو معين بسيسو أو نبيل الحلو او جواد الأسدي.

أعجبتني الفكرة، رائع أن يكون الفارس ممثلاً في مسرحية، إذ لا داعي لتغيير الديكور والألبسة، كل فارس ممثل، في هذه الوقفة يبدو الأمير عبد القادر وكأنه استعاد شيطانه الشعري. النحات استلهم فيه ملامح الشاعر أكثر من ملامح الفارس، وهو ما لم يعجب المسؤولين في هذا البلد، حتى أن أحدهم علق قائلاً:

- هذا سيف الأمير الذي هزم الترك والفرنسيين، وقاد معركة «خنق النطاح»، أم هو سيف دون كيشوط دي لامنتشا الذي أسر صاحبه ومؤلفه سرفنتيس في مرسى هذه المدينة والذي بدل بكمشة من العبيد.. ولأن الاحتفال كان رسمياً جداً لم يضحك أحدٌ من الحاضرين. علّق ثانٍ متأسفاً: كان على النحات أن يستلهم سيف الأمير من سيف علي ابن أبي طالب أو خالد بن الوليد. كان عليه أن يقرأ على الأقل سيرة عنترة أو سيف بن ذي يزن.. كما اختلفوا في الاتجاه الذي يُنصب عليه التمثال، أي وجهة يوجّه التمثال؟

قال الحزبيون الذين خنقوا العباد بأكياس الكلام الفارغ:

- نجعله ينظر إلى البحر، وكأنه لا يزال يراقب فرنسا حتى وهي خلف البحر.

قال جماعة من أهالي مدينة معسكر وسهل غريس وتاغدامت:

- نجعله ينظر جنوباً حيث مدينته وحنينه وقبر والديه، وحيث شجرة الدردارة التي بويع تحتها لا تزال واقفة.

قال ثالث، يبدو أنه صحفي أو شاعر وربما كان عاشق مسرح:

- اجعلوه ينظر إلى بناية المسرح فهو رجل علم وشعر وفن.

التفتوا جميعاً إليه، وقد انتبهوا الآن إلى أن هناك بناية للمسرح، بكل هذه الحوريات على واجهتها، لا تبعد عن أقدام التمثال أزيد من مائة متر.

صفارات الإنذار.

طلقات رصاص، تراشق بالذخيرة ليل نهار في حي «سيدي الهواري» و«رأس العين».

الناسُ تصطف لشراء الخبز وأنا حزينة على مدينة، أعانق كتاب «طوق الحمامة».

أحن إلى زهار، فهذه المدينة ملأتني وحشة.

تركت الأمير هنا في تمثاله، وقد نهض فيّ حنين خفي إلى المسرح، وأنا التي، طفلة، لعبت كثيراً على خشبات: مسرح القباني ومسرح الحمراء وخشبات مدارس المخيمات.

اقابل تمثال الأمير، حيث أجلس على درجات السلم الخارجي لمسرح وهران، المسرح بابه مغلوق، أفكر في حسن الوزان الذي مرّ من هنا، وفي ابن تاشفين وسرفنتيس.. هاهي عدوى مرض الرحلة والجغرافيا تصيبني، سبب الوباء ابن بطوطة الطنجي الفاسي. هو رجل لا رحمّ له ولا قبر له!!

هذا النحيف يشبه البيركامو، يبحث عن أول جرذ عليه علامات الطاعون الجديد.

اشعر أن المدينة يأكلها طاعون أو زلزال مدّمر.

الأبواب الحديدية النازلة في وجه المسرح تقلقني، اختناق في الرئتين، بقايا «أفيشات» معلقة لمسرحية «أرلوكان خادم السيدين» لغولدوني. ألوان الأفيشين فاقعة. المخرج أراد أن يصنع من أرلوكان جحا جزائرياً. فكرة صائبة ورائعة.

حين كان الثوار يحطمون سجن لاباستي في باريس، كانت وهران مرعوبة فوق زلزال خلّف أزيَد من ثلاثة آلاف قتيل.

ذلك موعد مع التاريخ أو الطبيعة.

سبحان الله، هذا الأمير بقضه وقضيضه قد نزل من تمثاله،

نفض قامته وطلعته من رخامها وبرونزها. يقترب مني وأنا لا أزال جالسة على درجة السلم الخارجي للمسرح، مأخوذة لا أزال بجحا غولدوني وهذه الأفيش وهذه الأسماء، أسماء الممثلين التي تعود للأنبياء.

- إنه عبد القادر.. اختلط عليّ الأمرُ، أيٌ عبد القادر أقصد؟!

يسلم عليّ، رجلٌ متعثر في خجله، خجلٌ يفارقه فقط ساعة يكون فوق الخشبة، وحين ينتهي يلبسه قبل أن ينزل درجات الركح.. وجه بكل ما فيه، كأنني جئت به معي في أشعار «طوق الحمامة».. كأنه عاشق خجل فانسحب من حكاية من حكايات ابن حزم، لأنه وجد فيها بعض الوقاحة أو الإباحية.

يضحك ويعلق بجملة غير منتهية:

- المسرح مغلوق.. نمرّ من الباب الخلفي.

بابٌ صغير.. ملأه حين اجتاز العتبة، الآن اكتشف طوله الفرعوني، واكتشف صغر جثتي، امرأة ليست جميلة جالسة بقرف قرب مقسم الهاتف، تسمع إذاعة «ميدي آن» التي ترسل من طنجة، سلّم عليها عبد القادر بحرارة.

الذي يسبقني متعثراً في خجله ليس الأمير عبد القادر.. إنه عبد القادر.. كلما مات عبد القادر ينبت لوهران عبد القادر آخر أطول من الأول بخمس سنتمترات على الأقل.. تقول حكاية في هذه المدينة إن آخر عبد القادر قبل الطوفان الأخير سيكون بحجم هذا الجبل الذي يسند المدينة والذي يسمى هو الآخر «جبل سيدي عبد القادر»!!

على الخشبة التفَّ حوله جمع من الممثلين، كانوا حزانى ولكن في عيونهم بريق حرارة مقاومة للطاعون الذي يكتسح المدينة.

أخذوا أماكنهم على الركح.

أعرف الآن أن عبد القادر خلع عنه خجله، لقد تحول إلى كائن آخر، كالريح أو الفيضان.

في القاعة يجلس خجله ينتظره بشوق متى ينتهي من هذه التدريبات.

يوزع عبد القادر الأدوار على الممثلين.

يقرأ من «منامات الوهراني»، يبتسم ويعلق وكأنما يكتشف هبل وجنون هذا الوهراني: أين محرز الآن فقط.

هذا ابن سيدي الهواري.. جني والله جني، يسخر من فقهاء دمشق والقاهرة ومن ساستهما.. تجار الحزن!!

اكتشف أن ابن بطوطة في القاعة يسجل في مدونته كل ما يجري على الخشبة، وهو الذي نسي أن يزور قبر ابن محرز.. إذا كان له قبر.. لا أعتقد أن سلطة ما تستطيع أن تقبل عظام هذا الوقح!! تحت تراب مملكتها.

الأنا الأخرى كنت مأخوذة بالأمير عبد القادر ولم انتبه إلى هذا الرجل الذي يشبه الغدة الخارجة في حلق الأئمة وتجار الدين والكتبة.. ربما عبد القادر نفسه كان يريد أن ينسى الناس، «شيطان وهران» الذي سبقه إلى دمشق ودومة فعاش هناك ناصباً فخه للجميع. الا يمكن أن يكون الأمير ممتلئاً ببعض الغيرة من هذا «الوهراني» ابن بلده، كما كان ابن حزم غيوراً من زرياب.

يعيد بومدين قراءة المقطوعة، فأفكر في حكاية «يوم الترك»، وكيف كان الفقيه يأكل عسله، يمصمصه من أصابعه وأصابع الطفلين.

«يوم الترك» أحكاية تلك في مدونة ابن بطوطة أم حقيقة مجزوءة من حقيقة زهار.

حين يقرأ بومدين تضحك فضيلة، دون أن تنزل عينيها من على عبد القادر، تفترسه فلا يخجل من نظرتها، لأن خجله هناك في القاعة، إنه حرّ ومحّرر منه.

يقاوم عبد القادر نظراتها، فأمتلئ أنا بإحساس غريب.

أغيرةٌ!! ما هذا!!

أبحث في القاعة عن ابن بطوطة، هو هناك لا يزال في مدونته غارقاً في حبره وحكاياته وجغرافيته، ربما هو الآخر ينتبه إلى الفراغات في مخطوطته، «منامات» الوهراني هي التي أقلقت طمأنينته.

لا طمأنينة في الإبداع، الكتابة المطمئنة كالجيفة الهامدة تنتظر التفسخ.

على الخشبة يلعلع صوت عبد القادر، يقرأ من «المنامات» وقد غرق في تأمل مليء بالسخرية.

في الشارع يلعلع الرصاص.

تترك المرأة مقسم الهاتف لتلتحق بنا داخل قاعة العرض حيث تجرى التدريبات. كانت ترتجف، وفي عينيها دمعتان، تبدو لي الآن رقيقة ذائبة كالزبدة البلدية.

رصاصٌ يصفّر غير بعيد في حي سيدي الهواري.

«أطلقوا النار على طاهر جاووت..».

يتوقف الجميع عن القراءة.. ينسحبُ عبد القادر من على المنصة، تتبعه فضيلة حمامة برونزية ثم يلحقهما الجميع.

يطفئ عامل الإنارة ما بقي من المصابيح المنارة، فيطلع فوق الخشبة شبح ابن محرز، حزيناً متكئاً على عصاه، على الرغم من أن قاع هذا الحزن الذي يلفه مليء بسخرية لاذعة، إلاّ أن ابن بطوطة غطى وجهه كالطفل، وكأن الذي رأيت رآه هو الآخر فهاله.

يسير عبد القادر إلى جانبي، وقد قلق لخبر إطلاق النار على الطاهر جاووت، الآن أتأمل أكثر قامتة وضخامة جثته، ضخامة موزعة بتناسق في جسد منحوت من مسرح، إن النحات اسقط منه النصف.. خانه.

آه يختلط في رأسي عبد القادر بعبد القادر.

أخرج، أبحث عن الأمير هلاّ يزال فوق منصته المصنوعة من البيطون المسلح متحزماً بآيته التي تمجد الموت، شاهراً سيفه الذي يشبه سيف دون كيشوط!؟

اللحظة أدرك أن هذا النحات كان يُكِنُّ كراهية للأمير. إنّ نظرة الأمير، فوق هذا الحصان الذي تشبه جثته بغلة الطشقندي، كنظرة عازبة عاتق خجولة.

حين رآني غارقة في تأمل تمثال الأمير، الذي كلما زدت تأملاً فيه اكتشفتُ أكثر فأكثر أخطاء النحات وعنصريته ونزعته الكولونيالية التي صبها في اختيار لباس الأمير.. قال لي عبد القادر:

- مسكين عبد القادر، منذ الاستقلال وهو يبتسم من على هذا الحصان، منذ أسبوع هربت عن شفاهه البسمة، يبس فمه، وهزل حصانه ومال السيف من قبضته. إن الأمير يعاني، كان مبتهجاً إذ وضعوا صورته على الأوراق النقدية.. أما الآن فقد حذفوا تلك الصورة وعوضوها براس خروف هولندي أو جلفوي (من الجلفة).. عاد الأمير حزيناً في تمثاله.. حين حذفوا صورته اجتمعت القبائل والعشائر بتاغدامت ومعسكر وغريس وتفنيف ومشرية والعين الصفراء وحتى حدود وهران- اجتمعت القبائل وقررت مقاطعة الأوراق النقدية الجديدة التي عوضت تلك التي كانت تحمل صورة الأمير.

ذات يوم سيسقط الأمير من على حصانه الرخامي.

قال بومدين:

- السلطة المركزية ألغته من الأوراق النقدية، والآخرون باسم الدين يريدون إلغاء تماثيله من الساحات العمومية بحجة أن التماثيل عادة جاهلية، تنسي الناس عبادة الله لتغيرها بعبادة الأصنام.

الساعة قاربت الخامسة مساءً. الجوّ باردٌ. رمضانٌ على العباد. عيونهم على الشمس. ينظر عبد القادر إلى ساعته:

- سأذهب لشراء «الزلابية» لأطفال مستشفى الأمير.

يركب عبد القادر سيارته R4، أصعد إلى جواره. دون أن التفت أشعر بنار تحرق ظهري، نارٌ منطلقة من عيون فضيلة.

بطارية السيارة نافدة، لا يدور المحرك.. يدور المفتاح يجعجع المحرك قليلاً ثم لا يردّ. فجأة انتبه فإذا سيلٌ من الأطفال والشبان وقد حوّطوا السيارة التي رفضت أن تتحرك، صارخين:

- عمّي عبد القادر لا تتعب نفسك.. دفعة واحدة وسنحوّلها إلى طائرة.. تأخذك حتى مكة أو أوستراليا.

حجة أو هجّة!!

دفعة يدور المحرك. يشير لهم عبد القادر بيده تحيّة ثم يعلّق:

- هكذا بلادنا معطلة.. بطاريتها نافدة، تحتاج إلى دفعة كي يدور محركها قبل أن يتصدأ.

ابن بطوطة حاملاً مدونة تحت إبطه، ينزل في اتجاه حي الإسبان..

- اتبع رائحة السمك حتى أصل مقلاة أو شبكة إسباني.

حي الإسبان في المرسى كئيب.. بعض المطاعم بروّادها من الإداريين والغرباء الذين يمرون بالمدينة.. مطاعم هزيلة على الرغم من حركتها الكثيفة لا يزالُ زيت مقاليها يشخشخ، ولا تزال اللغة الإسبانية شاهدة على زمن كان فيه إيمانويل روبلس شيطان الحيّ.

انهار ذاك الزمن!!

ابن بطوطة سيجمع ما تبقى من سرفنتيس وروبلس وكامو في هذا المرسى.

مثل فضيلة كان ابن بطوطة مشتعلاً غيرة.

كانت فضيلة تخفي نار غيرتها وهي تتحدث إلى سعيد مدير المسرح عن «كسكسي» الجمعة.

- أجمل كسكسي ذلك الذي مرقه نبيذ «ماسكرا» أو «كوفي دو بريزيدان»..

علّق سعيد بلهجة صحراوية مطعمة بوهرانية:

- كان الكسكسي المسقي بالنبيذ هو سبب الزلزال الذي ضرب وهران عام ألف وسبعمائة وتسعين، وهو أيضاً سبب اللعنة التي اصابت «الأصنام» بزلزالين.. اتركينا يا فضيلة.. فأنت تعلنين عن زلزال سيهز الأرض من تحت الأقدام ليرحل بها إلى البحر أو النار.

قال عبد القادر:

- سنمرّ على بائع «الزلابية»، أنت تمكثين في السيارة دون أن ترفعي رجلك من على «الاكسليراتور» حتى لا ينطفئ المحرك.. وأنا أخطف بسرعة صينية الزلابية، أعرف أن الحاج «التونسي» يكون قد جهّزها منذ أكثر من ساعة.. لقد تأخرت عن موعدي هذا اليوم.. لا معنى لرمضان دون زلابية بالنسبة للأطفال.

عبد القادر رئيس جمعية الأطفال المصابين بداء السرطان. إنه أبٌ رحيم.

يعود عبد القادر بصحنه مغطى بورق أبيض، يضعه في «المالة» ثم يأخذ كرسي القيادة.

حين يدخل عبد القادر سيارة R4، تبدو وكأنها علبة كبريت صغيرة. جسمه الكبير يملأها حتى يفيضُ على حفافي كراسيها.

قال جملة وكأنما كان في حديث طويل مع نفسه:

- «عند ابن محرز الوهراني سخرية أعمق من سخرية غولدوني».

قال هذه الجملة، وأنا ساكتة أقرأ ملامح وجهه الخمسيني،

الذي يبدو كوجه طفل غارق في حلم ينهض من قرون خلت، يداعب عينيه ثم يهرب.

يتحدث عن «عين البرد» قرية أجمل ما كان فيها شيوعيوها وبارها الذي يتوسطها في مواجهة جنينة صغيرة بنافورة وتمثال لفينوس.. ثم ينتقل للحديث عن مرض سعد الله ونوس الذي ينطفئ ببطء، عن قلق عز الدين المدني، فنان خجول جريء وطليعي، وعن عبد الكريم برشيد في همّه النظري ولغته الشعرية.

نحتاجُ يا حمامة إلى الضحك.. أريد أن أشتغل مسرحاً للضحك، الضحك قوة إنسانية عظمى، الضحك كالذكاء، كالشباب.. أريد أن أبقى ما تبقى من العمر على الخشبة أضحك ومعي يضحك الجمهور حتى تطلع روحي ويسدل الستار.

ضحكت.

تتجه السيارة بنا في الاتجاه الغربي للمدينة، حيث مستشفى الأمير للأطفال المصابين بالسرطان.

حقول الدالية، وأشجار غابة مسيلة يأكلها سرطان البيطون.

سرطان للأطفال وسرطان آخر للأرض الرائعة!!

حواجز عسكرية في مخرج المدينة. باب تلمسان.

- هذا حي كوكا.. هكذا يسميه أهل المدينة، نسبة لمصنع كوكاكولا الموجود في هذا المكان. كل البنايات حوله بنايات فوضوية، منحت قطع الأرض من قبل منتخبي الجبهة الإسلامية مقابل الأصوات الانتخابية.

حواجز عسكرية.

طريق خالية، والمؤذن يشرف على إطلاق صوته كي يسمح للناس أن ترفع «تمرة» إلى فمها..

رمضانٌ. الطريق مخيف في فراغه!!

صوت رصاص يسمع.

آخاف فيضحك عبد القادر ثم يعلّق:

- الرصاصُ كالمسرح.. على الممثل أن يلعلع كالمدفع.. وعلى الممثلة أن تزغرد كالرصاصة.

كان يتكلم وقد خفّض من سرعة سيارته، حتى جانب الحاجز الأمني: شباب الخدمة الوطنية.. ولينينجة بكماماتهم، ورجال الدرك الوطني..

رصاصٌ. وزجاجات الكازوز موضوعة على حافة الطريق مع تناول الفطور لهؤلاء العسكريين.

قال شاب بشفتين يابستين من عطش وخوف وهو يقترب من سيارتنا التي توقفت تماماً عند قدميه:

- آ السي عبد القادر.. متوجه عند أبنائه في مستشفى الأمير.

- أبناؤك.. رددت بعد أن أقلعت السيارة.

- كل أهالي المدينة يقولون عني إنني أب هؤلاء الأطفال المرضى بالسرطان.

الغمازة إلى اليسار، وندخل طريقاً ضيقاً يوصل بعد كلمتر تقريباً إلى بقايا مزرعة كولونيالية حُوِّلت إلى مركز أو مستشفى لهؤلاء الأطفال القادمين من كل النواحي.

- هذه هي المزرعة يا حمامة، حاول أحد الجشعين تزوير أوراق للاستيلاء عليها وطرد هؤلاء الأطفال.. وقد جندتُ لمواجهته أكثر محامي المدينة.. إن القضية لا تزال في المحاكم ولكننا سنربحها..

تتوقف السيارة.

الأطفال يحيطوننا من كل جهة، يقفزون متعثرين في براءتهم ناسين الداء الخبيث الذي ينخر أجسادهم الصغيرة.. باحثين كانوا عن صينية «الزلابية».

- كل واحدٍ قطعته..

وحين يسأل المرضة عن الطفل «عدة».

تسكت المرضة ثم تجيب، بصوت منخفضٍ حتى لا يصل صوتها إلى آذان الأطفال:

- البقية في حياتك.. طلعت روحه هذا الصباح.

أرى عبد القادر بكل هذا الجسد يبكي طفلاً اسمه «عدة». كم أنت بعيدة يا رحمة السماء.

يخفي دموعه، يداريها عن الأطفال.

ننسحبُ قبل أن يسقط الليل.

- كل يوم يسقط طفل.. يُحَتِّتهم هذا المرض ببطء رهيب.

هو حزين وأنا أفكر في «فضيلة».. اسمها «فضيلة» أم «زبيدة»؟!

تمنيت أن تسير بنا السيارة دون توقف حتى ندخل بحراً أو غيماً أو حكاية من حكايا ابن بطوطة.

أخاف أن يتوقف المحرك فتتقطع الرحلة.

حين أفكر في الرحلة يهجم على وجه «زهار» فأفكر في ما يكتبه ابن بطوطة كل مساءٍ في غرفته التي تجاور غرفتي في ذاك الفندق الذي يسمى «الفندق الكبير» والذي يحتفظ بذكريات من مرواً من هنا: جان بول سارتر والبيركامو ورشيد بوجدرة والأمير شارلز وكثيرون..

أثارني مدير الفندق الذي حاول إغرائي، حين حدثني عن مشروع يأكل قلبه، كما قال، إنه تأليف كتاب ذهبي لهذا الفندق الذي كان له في زمن مضى تاريخٌ وردي..

ابن بطوطة لم تثره الفكرة، لكنه علّق: هذه فكرة كاذبة إنه يريد أن يتصيّد النساء لا أكثر ولا أقل.

في المرسى كان ابن بطوطة يتشمم روائح الأسماك التي هي في الوقت نفسه روائح الإسبانيات، كان ينتقل في الحيّ الإسباني قائلاً:

- حسن الوزان كذبة خلقها أمين معلوف.. كاتبٌ ماروني يريد أن ينتقم لديانته وينتقم منّي، إنه أراد أن يسرق مجدي.

صوت الرصاص، ورصاصٌ يردّ.

تتوقف السيارة عند المدخل الرخامي للفندق الذي بدا عليه الهرم والقِدَم.

ما كان على السيارة.. سيارة R4 البيج أن تتوقف هذا المساء.. كان عليها أن تمشي حتى تتحول إلى طائرة أو طير.. لكن..!!

ودّعت عبد القادر أو ودّعني

- مع السلامة

في مصعد الفندق، مصعد عتيق حيث أصوات الحبال تُحدث موسيقى تثير الوحشة أو الخوف تساءلت:

- ماذا يفعل ابن بطوطة في غرفته.. إنه دون شك يكتب فصلاً عن وهران: عن الأمير الذي سقط من رخامه، عن أحياء تكدّست فيها السلع تحت مطر من رصاصٍ، عن بحر أو مدينة غامضة، عن رصاص ورصاصٍ وجنازات وجنازات وفجائع..

هذه المدينة ستحوله من جغرافي إلى شاعر.

قبل أن أجتاز غرفة ابن بطوطة، قاطعني قائلاً:

- رصاصٌ كثيف أين ذهب السي عبد القادر؟!

- لقد ودّعته.. لقد ودّعته إلى الأبد.

انتهت بنورماندية

CAEN LE: 30-05-96 – فرنسا – كاين

30 ماي 1996

الفهرس

الإيداع القانوني :1080-2002

ردمك :8-158-54-9961

دار الغرب للنشر و التوزيع

حي 52 مسكن رقم ENSEP 101 – وهران –

الهاتف:(041).41.65.31/ الفاكس: (041).41.94.31

يهجم عليّ وجه أمي !! فأمتلئ بهذا الفيض المورّد.. وسيل حكاية تتدلق من فم ذي شفتين بارزتين بسحر عجيب.
يهجم علي هذا الوجه، فلا أرى سوى تلك الأصابع وهي تفتت رمان فبراير في طبق من حلفاء ..ونحن قبالتها نخطف عقيق الرمان حفنة حفنة، ويخطفنا هول الحكاية بعيدًا بعيدًا.
ماتت أمي وهي تحكي..ماتت دون أن تنهي حكايتها.
الآن أشعر بشوق.إلى حكاية، وأشتهي رمانة، وأعرف أنني لست حبيسة وحم.

باب السمـــاء

ماذا يفعل ابن بطوطة في غرفته..إنه دون شك يكتب فصلاً عن وهران:
عن الأمير الذي سقط من رخامه، عن أحياء تكدست فيها السلع تحت مطر من رصاص، عن بحر أو مدينة غامضة، عن رصاص ورصاص وجنازاتٍ وجنازات وفجائع... هذه المدينة ستحوله من جغرافي إلى شاعر.

باب.عبد القادر



دار الغرب للنشر و التوزيع